زوارق الموت

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م
ردمك 8 -412-79-9947-978 : (ISBN)
التوزيع الدولي: مصر، لبنان، الأردن، العراق، السودان

اسم العمل: زوارق الموت
اسم المؤلف: منير بوزعطة
تصميم الغلاف: اسلام بوغدو
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: أحمد منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 75 65 85 033 / 50 28 76 0666

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

رواية

منير بوزعطة

زوارق الموت

حرّاقة

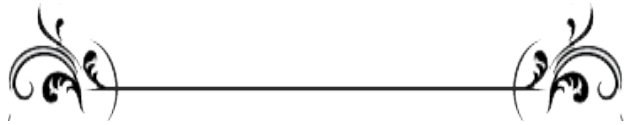

الفصل الأول: أغرب جريمة

الفصل الثاني: سهرة أم كلثوم

الفصل الثالث: هنا يتدرب الأبطال

الفصل الرابع: الثأر المر

الفصل الخامس: تجار الموت

الفصل السادس: مقبرة المتوسط

الفصل السابع: مافيا الندرونغيتا

الفصل الثامن: تجار الدين

الفصل التاسع: أثرياء متشردون

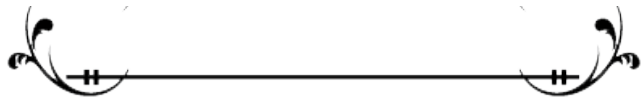

الفصل الأول

أغرب جريمة

كان يدعى زين الدين، كان النهار يوشك على الانتصاف حين وصل رفقة والدته إلى حيّهما الجديد الذي سيبدآن فيه حياة جديدة مختلفة عن الحياة التي عاشاها في القرية التي ترعرعا ونشآ فيها مذ عرفا هذه الدنيا .

كان حيّا قصديريّا فقيرا منازله شبه متلاصقة، يقع في طرف المدينة من جهة الجنوب الشرقي، وتجاوره أحياء أخرى قديمة، كان سكانها قد سكنوها منذ فترة طويلة قادمين من مناطق مختلفة من البلد مشكلين تجمعات سكنية ضخمة في تلك المدينة العريقة التي تشتهر ببناياتها ذات الطراز الفرنسي القديم والتي تقع على أحد سواحل البحرالأبيض المتوسط في أقصى الشمال الشرقي لتلك البلاد المغاربية الكبيرة.

لن يمر وقت طويل حتى يحصلوا على منازل محترمة أفضل بكثير من التي كانوا يملكونها في قريتهم

ذلك ما قاله المسؤولون في المدينة وصدّقه السكان الجدد الذين أحسّوا بالأمن والطمأنينة في حيّهم الجديد على الرغم مظاهر البؤس والفقر التي تخيم على كل زاوية من زواياه.

منذ أيامه الأولى التي وصل فيها إلى مدينته الجديدة أظهر الولد الصغير نبوغا كبيرا في دراسته في مدرسته الجديدة الواقعة على بعد قليل من الحي الذي يقطنه وتكفيه بضعة دقائق فقط للوصول إليها.

لم يكن أحد من زملائه قادرا على مجاراته فقد كان متفوقا عليهم بشكل كبير وذلك ما أثار الغيرة في نفوسهم، خاصة مع الاهتمام الزائد التي توليه إياه المعلّمة التي كانت تقدمه على كل زملائه بعد أن انبهرت بذكائه وعبقريته وتوقعت أن يكون له مستقبل عظيم .

كان ذلك ما جعل الغيرة والحسد يستبدّان أكثر فأكثر بقلوب زملائه الصغار الذين لم يتقبلوا تفوقه عليهم في ظرف وجيز وهو الغريب الفقير، ذو الملابس الرثة، القاطن في حي فقير والقادم حديثا من بلاد الغجر كما كانوا يطلقون عليه، لذلك صاروا يختلقون له المشاكل ويسخرون منه ويصفونه بمختلف الأوصاف القبيحة لا لشيء إلا لأنه يتفوق عليهم.

لم يفاجئ ذلك الولد الصغير ولم يكترث للأمر كثيرا فهو كان يعرف أن الأولاد قد أخذوا ذلك الطبع من مجتمعاتهم التي يعيشون بها فوالدته كانت قد أخبرته سابقا بأنه في بلدهم الذي يعيشون فيه يُمنع النجاح والابتكار منعا باتا حيث يحارب فيه الناجح بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة وتوضع أمامه كل العراقيل حتى يفشل.

كان مـما أخبرتـه بـه أن هنـاك فئـة مـن أصحـاب المصالـح ينشـطون في الظـلّ، يعملـون عـلى محاربـة النجـاح أينـما كان في تلـك البـلاد التـي يريدونهـا أن تبقـى دائمـا متأخـرة وتابعـة لهـم في كل المجـالات حتـى يضمنـوا الاسـتمرار في السـيطرة عليهـا والاسـتئثار بمقدّراتهـا لأطـول فـترة ممكنـة، ثـم إنـه ومـع مـرور الوقـت أصبحـت ثقافـة محاربـة الناجحـين وضـع العراقيـل في طريقهـم هـي الثقافـة السـائدة في البـلاد بعـد أن انتـشرت عدواهـا بـين أطيـاف المجتمـع المختلفـة

بقيـت تلـك المعلومـات راسـخة في ذهـن الصغـير الـذي كانـت والدتـه تحـرص بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة لتصقلـه منـذ صغـره وتصنـع منـه رجـلا ناجحـا ومتميـزا في المسـتقبل حتـى لا يعـاني البـؤس والفقـر اللذيـن عانـت هـي منهـما طـوال حياتهـا.

بمـرور الوقـت انصهـر الولـد في ذلـك المحيـط وتعـوّد عـلى العيـش في تلـك الأجـواء وأسـلوب الحيـاة في تلـك المدينـة ومـا لبـث أن تحـول معظـم زملائـه الذيـن اعتـاد عليهـم واعتـادوا عليـه إلى أصدقـاء له بعـد أن أصبح واحـدا منهم كان قـد بلـغ الحاديـة عـشرة مـن عمـره عندمـا حصـل عـلى شـهادة التعليـم الإبتـدائي بامتيـاز لينتقـل للدراسـة في إحـدى الإكماليـات الواقعـة في وسـط المدينـة

على الرغم من إحساسه بالوحدة لافتراقه عن أصدقائه الذين انتقلوا للدراسة في إكماليات أخرى إلا أنه كان سعيدا لأنه انتقل للدراسة في مكان جديد، فعلى الأقل هناك لا يعرفون أن والدته تعمل كمنظفة في مدرسة ليعيّروه بها كما كان يحدث معه في مدرسة الحيّ.

مرّت الأيام الأولى بصفة عادية لم يشعر فيها باختلاف كبير عن المدرسة التي كان يدرس بها

إلا أنه وبمرور الوقت وتوالي الأيام بدأ الفتى الصغير يحسّ بالتعب وفقدان الرغبة في الدراسة، لم يكن سبب ذلك فقط لافتقاده أصدقائه السابقين الذين ألفهم ثم فارقوه فهو سرعان ما اكتسب أصدقاء جددا في تلك الإكمالية التي كانت الأقدم من بين كل الإكماليات المتواجدة في تلك المدينة.

كان سبب إحباطه هو بعد المسافة التي يقطعها كل يوم ماشيا بين الحي الذي يقطنه والإكمالية التي يدرس به،ا ففي ظل عدم امتلاكه المال لاستقلال وسيلة نقل، وعدم توفر حافلات للنقل المدرسي رغم الوعود المتكررة لم يكن أمامه سوى قطع تلك المسافة على قدميه.

كان الولـد الصغـير في كل يـوم يقطـع مسـافة طويلـة جـدا ذهابـا وإيابـا، مـما أصابـه بالإرهـاق والإحبـاط خاصـة في فصـل الشـتاء أيـام الـبرد القـارس والأمطـار الغزيـرة والعواصـف الثلجيـة البـاردة، خصوصـا في تلـك المدينـة المجـاورة للبحـر والتـي تعـرف في فصـل الشـتاء ببرودتهـا الشـديدة وأمطارهـا الغزيـرة التـي كانـت كثـيرا مـا تبلـل ثيابـه فـوق جسـمه لدرجـة أنـه كان كثيرا مـا يصـاب بنـزلات الـبرد بفعـل بـرودة الطقـس وتعرضـه المتكـرر للابتـلال

كانـت معانـاة يوميـة يعانيهـا الولـد الصغـير مثلـه مثـل آلاف التلاميـذ القاطنين في أماكـن بعيـدة ومعزولـة حيـث كانـوا يعانـون الأمرّيـن دون أن يهتم لأمرهم أو يسـأل عـن حالهـم أحـد في ذلـك البلـد الغنـي الـذي مـات أجدادهـم مـن أجلـه ويعـرف بأنـه بلـد العـزة والكرامـة.

حـاول الولـد أن يتأقلـم مـع تلـك الأوضـاع وأن يقـاوم الإحبـاط الـذي تـسرّب إلى نفسـه، لكنـه كان قـد فقـد الرغبـة في الدراسـة التـي أصبحـت بمثابـة عـبء ثقيـل عـلى كاهلـه وروتـين يومـي مرهـق ومتعـب بعدمـا كانـت تعنـي لـه الـشيء الكثـير في وقـت مـن الأوقـات.

وبمـا أن المصائـب لا تـأتي فـرادى فـإن متاعـب الصغـير لم تتوقـف عنـد ذلـك الحـد، فقـد كانـت بانتظـاره مشـكلة أخـرى سـيكون لهـا تأثـير عظيـم عـلى مسـار حياتـه تمامـا.

كانت حالته المادية تزداد تأزّما كلما مرّ الوقت؛ وذلك لأن والدته قد أصابها المرض فأصبحت لا تذهب للعمل إلا نادرا وكان ما تجنيه من عملها بالكاد يكفي لتوفير ما يقتاتون به فتقلّص دخل الأسرة الصغيرة أكثر فأكثر وهو الذي كان زهيدا في الأصل

لم تلبث الأم بعدها أن انقطعت عن العمل بعد أن أعجزها المرض وأقعدها تماما، في تلك الفترة كان الصغير ووالدته يعيشان على صدقات بعض المحسنين وأصحاب المروءة والشهامة في تلك المدينة، حيث كانوا يتصدقون على تلك الأسرة الصغيرة ويعطونها من زكاة أموالهم ولو لا ذلك لما كان لهم مصدر رزق يقتاتون منه.

في ظل تلك الأوضاع المتردّية كان الفتى الصغير يستغل أيام العطل للذهاب للعمل في إحدى ورشات البناء الذي كان صاحبها يستغل الأطفال الفقراء للعمل عنده مقابل مبلغ زهيد يسلمه لهم.

بمرور الوقت وتوالي الأحداث تراجع مردود الفتى الدراسي بشكل ملحوظ، ولم يعد من المتفوقين كما كان من قبل فلم تعد الدراسة من أولوياته كما كانت في وقت مضى.

بدأ مستواه بالانحدار والتردي يوما بعد يوم وأصبحت نتائجه تتجه من سيء إلى أسوء كلما مرت الأيام وتعاقبت. لم يلبث بعدها أن أصبح يتغيب

عـن الدراسـة للذهـاب إلى العمـل في تلـك الورشـة رغبـة منـه في جنـي القليـل مـن المـال وإعانـة والدتـه التـي لم تكـن تعلـم بتغيبـه عـن مدرسـته.

اسـتمر الوضـع عـلى مـا هـو عليـه لبعـض الوقـت حتـى حـدث مـا لم يكـن متوقعـا حيـث أنـه ومـع تكـرر غياباتـه صـدر الأمـر مـن إدارة الإكماليـة بفصلـه وإنهـاء مسـيرته الدراسـية في بداياتهـا

حـاول أحـد الموظفـين في تلـك المؤسسـة الحيـال دون ذلـك بالتوسـط لـه لـدى إدارة الإكماليـة، وذلـك بعدمـا شرح لهـم حالتـه الاجتماعيـة الصعبـة وطالـب بإعطائـه فرصـة أخـرى مقابـل ضمانـه لعـدم غيابـه مجـددا.

كان يعلـم أن الصغـير يملـك عقـلا عبقريـا لكـن ظروفـه الاجتماعيـة المتردية وحالتـه النفسـية السـيئة صرفتـه عـن التركيـز عـن دراسـته وحرمتـه مـن تفجـير مواهبـه

بـاءت كل محـاولات ذلـك الموظـف بالفشـل وكان مـن الـضروري تطبيـق القانـون بحذافـيره عندمـا يتعلـق الأمـر بالفقـراء والضعفـاء

فقـد كان كثـير مـن أصحـاب القـرار في تلـك البـلاد يغتنمـون ويتصيـدون مثـل تلـك الفـرص للاسـتقواء عـلى الضعفـاء والتلـذذ بإلحـاق الـضّرر بهـم حتـى يظهـروا صرامتهـم في تطبيـق القوانـين وإجادتهـم لأعمالهـم، بينـما كانـوا

يغضّـون الطـرف عـن الأقويـاء والأغنيـاء ويتغاضـون عـن أخطائهـم مهـما كانـت كبـيرة وبالغـة.

تـم ترسـيم فصلـه مـن الدراسـة فعليّـا ولم يعـد هنـاك أي أمـل للتراجـع عـن ذلـك القـرار فتجـرّع الفتـى الصغـير مـرارة الطـرد مـن الدراسـة وهـو لا يـزال مراهقـا في الثالثـة عـشر مـن عمـره.

حينـما تسـلم قـرار الفصـل حـزن الفتـى حزنـا شـديدا لم يحـزن مثلـه في حياتـه، لكنـه أخفـى ذلـك عـن والدتـه وتظاهـر بالسـعادة أمامهـا محـاولا إقناعهـا أن توقفـه عـن الدراسـة سـيكون مفيـدا لهـما؛ لأنـه سـيتيح لـه الفرصة للعمـل وجلـب المـال الـذي سيسـاعدهما عـلى تكاليـف الحيـاة ويعينهـما على نوائـب الدهـر، فليـس كل مـا يكرهـه المـرء في هـذه الحيـاة فيـه شر لـه، فكثـير مـن الأشـياء يتضايـق منهـا الإنسـان رغـم أنهـا تحمـل لـه الكثـير مـن الخـير والسـعادة.

بالمقابـل فـإن المـرء يبـذل قصـارى جهـده للحصـول عـلى أشـياء يـرى فيهـا خـيرا كثـيرا ليكتشـف لاحقـا أنهـا تحمـل لـه الكثـير مـن البـؤس والشـقاء.

- ربمـا كان في هـذا الأمـر خـير كبـير لنـا، فخـير الإنسـان فيـما اختـاره اللـه لـه. قـال الفتـى محـاولا إقنـاع والدتـه. التـي لم تصـدّق الخـبر الـذي نـزل عليهـا كالصاعقـة وحزنـت حزنـا عظيـم اوهـي التـي كانـت تعلّـق عليـه كل أملهـا

لـتراه قـد ظفـر بمنصـب محـترم في يـوم مـن الأيـام، يكتسـب مـن خلالـه مكانـة مرموقـة في ذلـك المجتمـع الظـالم لتتفاجـأ بطـرده في بدايـة مشـواره الـدراسي.

ذهبـت كل تضحياتهـا وتعليماتهـا طيلـة سـنوات سـدى. وحـدث أسـوء مـا يمكـن أن يحـدث عـلى الإطـلاق فقـد كانـت أكـبر أحلامهـا في الحيـاة هـي أن تـراه وهـو يحقـق نجاحـات كبـيرة في حياتـه لكـن ظنهـا خـاب وتداعـت كل آمالهـا وأحلامهـا منـذ البدايـة.

قُـضي الأمـر وتـرك الفتـى الحيـاة الدراسـية وراء ظهـره ليبـدأ حياتـه الجديـدة التـي كان يـدرك أنهـا لـن تكـون مفروشـة بالـورود وأن بانتظـاره رحلـة مجهولـة وطويلـة.

منـذ أيامـه الأولى أخـذ الفتـى يتنقـل بـين الأعـمال البسـيطة التـي لا يعملهـا إلا الفقـراء لدخلهـا الزهيـد ومشـقتها الشـديدة وصعوبتهـا.

بـدأ رحلتـه العمليـة في أحـد مخـازن الإسـمنت ومواد البنـاء حيث كانـت القوة البدنيـة هـي كل مـا يحتاجـه العامـل في ذلـك المخـزن، كان عـلى العامـل هنـاك إنـزال وتعبئـة المئـات مـن أكيـاس الإسـمنت التـي تهـدم البـدن لثقلهـا مـن وإلى الشـاحنات التـي تسـتمر في الذهـاب والايـاب طـوال اليـوم سـواء لإحضـار أو أخـذ الإسـمنت، بالاضافـة الى بعـض المـواد الأخـرى كالحديـد والآجـر وغيرها.

كل ذلك العمل المجهد كان مقابل مبلغ بسيط لا يكفي لإعالة أسرة صغيرة ومن دون أي تأمين .

كان أغلب العمال في ذاك المخزن من حديثي السن الذين غادروا مقاعد الدراسة في سن مبكرة، كل واحد منهم لسبب من الأسباب، فمنهم من تركها لإعانة أهله الفقراء على تكاليف المعيشة، ومنهم من أغواه رفقاء السوء وزينوا له تركها، ومنهم من غادر لأسباب أخرى لا سيما مع عدم اهتمام أهاليهم بهم وبمردودهم الدراسي.

كان أولئك الشبان يعملون منذ الصباح الباكر حتى تقارب الشمس على المغيب، وأغلبهم كانوا يتوجهون فور انتهائهم من عملهم إلى أحد حانات المدينة فينفقون المبلغ الذي جنوه في شراء المسكرات والخمور التي يستهلكونها ليلا خلال سهرهم في الأزقة الضيقة للمدينة، حيث كانوا يرون أن السكر هو الشيء الوحيد الذي ينسيهم همومهم وآلامهم لا سيما مستقبلهم المجهول في تلك البلاد الظالمة ونظرة الازدراء والاحتقار التي كان سكان المدينة يرمقونهم بها لفقرهم وشدّة حاجتهم، فبثيابهم مهترئة وأحذيتهم ممزقة وغبار الإسمنت يرابط فوق شعورهم ووجوههم، لذا لم يكن أحد من الناس ينظر إليهم باحترام وتقدير.
كان ذلك يزيد من ألم الشبان أكثر فأكثر لكنهم لم يكونوا قادرين على فعل أي شيء فقد

كان ذلك هو القانون السائد في تلك المدينة والبلاد ككل، ولم يكن بالإمكان تغييره أو تغيير قناعات الناس والتحكم في تصرفاتهم.

لم يكن الشاب الصغير يشارك أصدقائه السّكْر، فقد كان يرى أن تعاطي المخدرات والمسكرات ليس حلا لمشاكلهم بل هو دليل على ضعفهم واستسلامهم، فهو في الواقع ليس أكثر من مجرد إضاعة للمال وهروب من واقع مرير على الإنسان أن يواجهه بحزم وثبات ولا يستسلم لليأس مهما تكاثرت عليه الخطوب.

على الرغم من عدم مشاركته لهم في سكرهم إلا أنه كان يشاركهم السهر كل ليلة إلى ساعة متأخرة غير مبال بالخطر المحدق الذي يتهددهم، حيث كانوا معرضين للاعتقال في أية لحظة من طرف دوريات الشرطة التي كانت تتعقب المدمنين في أزقة المدينة الضيّقة حتى ساعة متأخرة من الليل.

استمر الشبان على ذلك الحال قرابة الثلاث سنوات كانت كأنها يوم واحد يعيد نفسه ويتكرر باستمرار دون أن يتغير فيه شيء يذكر، العمل في المخزن نهارا والسهر في الأزقة الضيقة ليلا، ذلك كل شيء ولا شيء غيره، لم تكن تلك السنوات أكثر من مجرد قديم يُعاد باستمرار من دون أي جديد يُذكر.

قرروا بعدها التوقف عن العمل في ذلك المخزن بعد أن أجهدت قواهم ولم يعودوا يطيقون ذلك العمل المجهد مقابل مبلغ بسيط ومن دون تأمين لا سيما بعد أن تعرض بعضهم لإصابات في أجسادهم جراء حملهم المتواصل للأثقال.

بعد أن لبثوا لمدة من الزمن بطالين أخذ الشبان بالتنقل بين مختلف الأعمال البسيطة ذات الدخل الضعيف فعملوا في ميناء المدينة لبعض الوقت كحمالين، لكن ذلك العمل لم يكن أحسن من سابقه بل لعله أشد مشقة منه، انتقلوا بعدها للعمل في ورشة للبناء ثم في تعبيد الطرقات مع إحدى الشركات لكنهم لم يلبثوا طويلا حتى توقفوا عن العمل فيها بما أن رب العمل أعلن لهم عدم حاجته إليهم في المشاريع القادمة.

استمروا بعدها في التقلب بين البطالة تارة والتنقل من عمل إلى عمل تارة أخرى دون العثور على العمل الذي يجدون فيه راحتهم.

كانت كل الأعمال البسيطة المتوفرة عبارة عن تطبيق عملي للنظريات التي تنص على أن العامل يجب أن يعمل مثل الآلة تماما من دون أي اعتبار لقيمته كإنسان له مشاعر وقدرات محدودة، لذلك كان على العامل في تلك الأعمال أن يبذل مجهودا كبيرا جدا مقابل راتب هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع، لا سيما مع غلاء المعيشة وصعوبتها في تلك

البلاد التي كانت كلما مرّ الوقت ازداد غنيها غنى ورفاهية وازداد فقيرها فقرا وبؤسا.

عندما بلغ الشاب الثامنة عشر من عمره رأى رفقة بعض أصدقائه أن الوقت قد حان للقيام بخطوة إلى الأمام من أجل التخلص من تلك الأعمال الشاقة وحياة المهانة والفقر التي يعيشونها منذ مغادرتهم مقاعد الدراسة.

دفع الوضع المزري الذي كان يعيشه الشاب رفقة أصدقائه للتفكير في خطوة من شأنها أن تكون حلا لمشكلتهم ومرهما لجراحهم التي أثخنتهم في تلك المدينة فقرر مع بعض من رفقائه الالتحاق بالجيش الذي كان العمل الوحيد في قطاع الدولة الذي يستقبل أبناء الفقراء وأصحاب المستوى الدراسي المتدني غير أنه ومع الارتفاع الكبير لنسبة البطالة في البلاد صار الإقبال على تلك المهنة كبيرا جدا فأصبح الأمر يتطلب وساطة للظفر بمنصب فيها.

لم يكن الشبان يملكون من يتوسط لهم ويساعدهم لكنهم مع ذلك قرروا المجازفة وتجريب حظهم لعلهم يبلغون مرادهم ويتخلصون من حالة الضنك التي يعيشونها فمن لا يجازف في هذه الحياة لا يتقدم أبدا إلى الأمام ويبقى دائما في المؤخرة ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر. كان مما شجعهم أكثر هو الإعلان عن تجنيد ثلاثة آلاف جندي في إحدى

الثكنات بمدينة بجاية الساحلية، التي ستكون أولى محطاتهم نحو الظفر بعمل محترم يكسبون من خلاله مرتبا محترما يضمن لهم عيشا كريما ويغير نظرة الناس تجاههم.

كانت والدة الشاب تتقلب بين أمرين أحلاهما مرّ، فمن جهة كان يعزّ عليها فراق ولدها الوحيد الذي كان مؤنس وحدتها وسندها الوحيد الذي تتكئ عليه عند النوائب، ومن جهة أخرى لم يكن أحب إليها من أن تراه وقد حصل على عمل محترم يبني به مستقبله ويخلّصه من الأعمال المهينة والشاقة التي لطالما عمل بها منذ مغادرته مقاعد الدراسة.

في النهاية فضّلت مصلحته على مصلحتها وتمنت له التوفيق والنجاح في مسعاه الذي يسعى إليه.

- لن أقف في طريق تحقيق أحلامك وسعيك في البحث عن الحياة الكريمة التي تصبو إليها لكن وبما أنك ساع وراء تحقيق آمالك فإني سأوصيك بوصية عليك أن تحفظها وتضعها نصب عينيك دائما ما دمت حيا، كان علي أنّ أوصيكها منذ زمن لكن الوقت لم يفت بعد لتسمعها.
مكثت الأم صامتة لبرهة قصيرة بينما اعتدل في جلسته أخذ يفرك شعره الأسود المسدول، وهو ينظر نحوها بغرابة بعينيه العسليتين الواسعتين بعد أن شدّه كلامها وتملّكه الكثير من الفضول لمعرفة ماهية تلك الوصية.

قالت الوالدة:

أوصيك يا ولدي ألّا ترضى أبدا بالعيش ضعيفا في هذه الحياة، وليكن هدفك دائما الوصول إلى الصفوف الأمامية، فالضعف في هذا العالم جريمة عقوبتها الاضطهاد والمعاناة طوال العمر. عليك أن لا تتوقف أبدا حتى تفرض نفسك فرضا، وتحقق الأهداف التي تسعى إليها وإياك أن تستسلم مهما فشلت وضاق بك الحال، فالنجاح لا يعطى هبة أو حظا وإنما ينتزع انتزاعا ولن يكون ذلك إلا بعلو الهمة وطول النفس والجلد على مكابدة العوائق والمصاعب والوقوف بعد كل سقوط .

نظر الفتى لوالدته بتمعن وهو يشعر بالغرابة من كلامها الذي قالته وبنبرة صوتها التي لم يتعود عليها دون أن يجيب بكلمة واحدة بينما عدلت هي عن الكلام للحظات فاسحة له المجال ليقلّب الأمر في رأسه ويحلّل كلامها جيدا قبل أن تضيف مخاطبة إياه:

-عليك أن تدرك أننا نعيش في عالم مزيف لا رحمة فيه ولا خلق، لا بقاء فيه إلا للأقوياء ولا كرامة فيه للضعفاء الذين تنتهك حقوقهم وتستباح أملاكهم وأعراضهم متى أراد ذلك أصحاب القوة والسلطة وذلك على الرغم من كل تلك القوانين والدساتير التي تبدو في ظاهرها قد صيغت لتحقيق المساواة والعدل وحماية الضعفاء والمظلومين، لكنها في الحقيقة قد صيغت وشرعت لتثبيت ملك الأقوياء وحماية مصالحهم ونفوذهم.

ثم أضافت:

مـا يتوجـب عليـك فعلـه هـو ألّا تنتظـر أن ينظـر أحدهـم نحـوك نظـرة إشـفاق أو يعينـك عـلى الوصـول لأهدافـك وتغيـير حالتـك فالأجـداد يقولـون: "إذا كنـت تبحـث عـن الشـخص الـذي سـيغير حياتـك فانظـر إلى المـرآة"، لـذا فـإن الحـلّ الوحيـد المتوفـر أمامـك هـو أن تعتمـد عـلى نفسـك لتحقيـق مـا تصبـو إليـه.

- إن كان الأمـر كـما تقولـين فـماذا يمكـن أن يفعلـه شـخص ضعيـف مثـلي حتـى يصـل إلى الصفـوف الأماميـة في هـذا العـالم القـاسي؟ قـال الشـاب متسـائلا في حـيرة.

ردت الأم: عليـك بالاعتـماد عـلى مواهبـك الشـخصية، فإحداهـا سـتقودك حتـما إلى المقدمـة في يـوم مـن الأيـام إن أنـت اسـتغللتها اسـتغلالا جيـدا. قال الشاب متعجبا: عن أي مواهب شخصية تتحدثين ؟

أجابت الأم :

اسـمعني جيـدا يـا ولـدي، إن اللـه لم يخلـق إنسـانا ولا مخلوقـا في هـذه الحيـاة دون أن يـزوده بمواهـب شـخصية تميـزه عـن غـيره وتلائـم ظروفـه التـي يعيشـها، فحتـى الحيوانـات التـي تعيـش في الغابـة قـد زوّدت بمواهـب تلائـم طبيعتهـا وبيئتهـا التـي تعيـش بهـا، فبينـما أعطيـت الحيوانـات المفترسـة الثقيلـة القـوة والشـجاعة والأنيـاب الحـادة والمخالـب القويـة الملائمـة للفتـك بفرائسـها، فـإن الطرائـد والفرائـس أعطيـت سرعـة العـدو وقـوة السـمع وحدّة

البصر للهروب من المفترسين، بينما أعطي غيرها مواهب في التخفي والمراوغة وهكذا كل حسب طبيعته في تلك الغابة التي يحكمها قانون القوة تماما مثل عالمنا الذي لا يختلف عنها إلا بقدر يسير؛ لذلك فليس هناك إنسان يعيش به إلا ووهبه الله مواهب شخصية ملائمة للظروف التي يعيشها وما على ذلك الإنسان إلا اكتشاف تلك المواهب المخبوءة في نفسه واستغلالها لتحقيق أحلامه وحماية نفسه وتحصينها، فإن عدم استغلال تلك المواهب بعد اكتشافها سيجعل من وجودها وعدمها سواء.
قال الشاب: هذا يعني أني أملك مواهب شخصية ولا أعرف ما هي.

قالت الأم :

ليس بالضرورة أن لا تكون تعرفها، فقد تكون لديك مواهب تحتقرها ولا تهتم بها رغم أن فيها عزّك ونجاحك في هذه الحياة إن أنت أعطيتها الاهتمام اللازم واجتهدت لتحسينها، كل ما عليك فعله هو الاهتمام بمواهبك الظاهرة والتفتيش جيدا في نفسك لاكتشاف المواهب الكامنة بداخلك، وسوف تجد أنك متميز في أشياء لا يستطيع أن يملكها الكثيرون ممن يفوقونك مالا ومنصبا ولو حاولوا لها سبيلا، فكثير هي تلك الأشياء التي يمتلكها الفقراء والضعفاء يحلم الأغنياء أصحاب السلطة بامتلاكها لكنهم لا يستطيعون ذلك.

ثم أردفت قائلة وبصوت حازم بعد أن لاحظت بعض الإحباط على وجه الشاب:

إياك أن تشعر باليأس أو تفقد الثقة في نفسك أوتحتقر قدراتك ولو للحظة واحدة فكم من بذرة صغيرة الحجم تُداس تحت الأقدام تحوي

بداخها شجرة عظيمة كثيرة الأغصان والثمار فاليأس والاستسلام لا يليق بمن علت همته وطلب المعالي.

أضافت:
إن لم يكن هناك من يساعدك على تحقيق طموحاتك وجب عليك أن تساعد نفسك بنفسك، فقط ثق بنفسك واستعن بالله ولا تعجز.

لم يتكلم الشاب بكلمة واحدة لبضعة لحظات أخذ يفكر في تلك الوصية التي أخذت منه موقعا حسنا، ثم أحس بالإحباط الشديد بعد أن تذكر أن أعظم موهبة منحه الله إياها قد ضاعت منه قبل سنوات، قد تكون مهارته في لعب كرة القدم هي تلك الموهبة التي كان عليه أن يستغلها لتحقيق أحلامه.

عادت به الذكريات إلى أيام الطفولة وإلى ما حدث معه في تلك المرحلة التي كانت ذكرى سيئة تجعله يحس بالمرارة كلما تذكرها بعد أن ذاق طعم الظلم والاضطهاد على يد أبناء مدينته.

تذكر كيف أنه كان الطفل الأكثر مهارة في لعب الكرة في كل المدينة وربما في البلاد كلها لكنه يوم قرر إجراء التجارب مع فريق المدينة ليحقق حلم حياته بأن يصبح لاعبا مشهورا مثل لاعبه المفضل البرازيلي رونالدو حدثت له حادثة مشينة بقيت محفورة في ذاكرته، فرغم أنه كان الأفضل

عـلى الإطـلاق في تلـك التجـارب إلا أن أعضـاء الفريـق لم يختـاروه مـع الذيـن التحقـوا بأكاديميـة النـادي فهـم لم يختـاروا الأفضـل في تلـك التجـارب بـل كانـوا يختـارون أبنـاء الأغنيـاء والشـخصيات المرموقـة رغـم مسـتوياتهم الضعيفـة جـدا مقارنـة بأبنـاء الفقـراء.

تذكـر ذلـك الطفـل السـمين الـذي تـم اختيـاره عـلى رأس القائمـة رغـم أنـه كان الأضعـف مـن بـين الجميـع، وبالـكاد كان يسـتطيع الجـري لبضعـة أمتـار ببطنـه الكبـيرة والـشيء الوحيـد الـذي كان يملكـه ويشـفع لـه أنـه ابـن أحـد الأغنيـاء.

-لِمَ فعلوا ذلك معي؟ تساءل الشاب في نفسه بحزن ثم أضاف متألما:
- فعلا، لا يوجد عدل هذه الحياة.

أحـس بالمـرارة وهـو يتذكـر كيـف ضاعـت منـه تلـك الفرصـة المؤكـدة التـي كانـت سـتجعل منـه إنسـانا مختلفا، كان سـيصبح شـخصية مشـهورة وسـيجني الكثـير مـن المـال والامتيـازات الماديـة لـو تـم قبولـه في الفريـق الـذي يعـدّ مـن أشـهر الفـرق في البـلاد ويجنـي لاعبـوه أمـوالا طائلـة ويتقاضـون مرتبـات ضخمـة وخياليـة.

أحـسّ بغصـة في صـدره وتنهـد بحـرارة متأسـفا ثـم قـال بصـوت خافـت: مكتـوب، لقـد قـدر اللـه أن يحـدث ذلـك ومـا باليـد حيلـة.

ثـم فكـر أن الإنسـان لا بـد أن تكـون لـه أكـثر مـن موهبـة واحـدة في هـذه الحيـاة فالكثـيرون يتميـزون في عـدة أشـياء مختلفـة في نفـس الوقـت ولابـد أنه يملـك مواهـب أخـرى غـير مهارتـه الكرويـة وكل مـا عليـه هـو اكتشـاف تلـك المواهـب المخبـأة في كيانـه واسـتغلالها للوصـول إلى أهدافـه.

★★★★★

الفصل الثاني

سهرة أم كلثوم

في صباح اليوم الموعود وفي الساعة الرابعة صباحا وصل الشاب إلى محطة الحافلات رفقة أصدقائه الأربعة الذين سيرافقونه في رحلته التي كان يأمل أن تكون بداية عهد جديد لحياته.

لم يطل الانتظار بهم كثيرا بعد وصولهم المحطة، فلم يمر سوى وقت قصير حتى دخلت إحدى الحافلات لتتوقف في المكان المخصص لخط مدينة بجاية ثم خرج منها القابض وأخذ يصيح بصوت جهوري اخترق هدوء المحطة :"بجاية، بجاية، بجاية....."

- وصلت الحافلة أخيرا هيا بنا، لقد بدأت الرحلة، قال أحد الشبان ثم انطلق باتجاه الحافلة وتبعه رفقاؤه الأربعة الذين صعدوا وراءه.

عند الخامسة صباحا تحركت الحافلة وانطلقت الرحلة التي تخللها توقف للتزود بالوقود في إحدى المدن قبل استئنافها حيث استمتع الشبان كثيرا بالمناظر الطبيعية الجميلة الفاصلة بين تلك المدن التي مروا بها لا سيما ذلك الطريق الجبلي البحري الساحر المؤدي إلى مدينة بجاية قريبا من مدينة جيجل، والذي كان يغص بالقردة المتواجدة على أطرافه .

نظر الشاب بحزن إلى تلك القردة وقد حسدها على سعادتها التي كانت بادية عليها وهي تلعب وتمرح على جوانب ذلك الطريق بسعادة و فرح.

- ليت عالم الإنسان بسيط وهادئ كعالم الحيوان فليس لدى الحيوانات ما يكدر صفوها وينغّص عيشها فهي ليست مطالبة ببناء مستقبلها، ولا بالسعي للحصول على عمل تعيل به أسرها، لا تتألم عند فراق من تحب، ولا يستكبر بعضهم على بعض فكلهم متساوون في المنزلة وليس فيهم شريف ووضيع ولا غني وفقير كما هو الحال مع البشر، لا يختلقون المشاكل فيما بينهم ولا يضمرون الشرور في أنفسهم ولا تمتلئ قلوبهم بالبغض والحقد والحسد مثل الكثير من الناس، كل ما يسعون إليه هو الحصول على الطعام والشراب والعيش بسلام.

قال الشاب في نفسه بحزن مفكّرا أن على بعض البشر أن يتعلموا منهم.

استمرت الرحلة زهاء الثماني ساعات جعلت كل من كان راكبا في الحافلة منهكا بما في ذلك الشبان باستثناء السائق والقابض المتعودين على مثل تلك الرحلات حيث كانا يتبادلان أطراف الحديث والمزاح طوال أغلب فترات الرحلة.

في الساعة الثالثة زوالا دخلت الحافلة المدينة متوجهة إلى المحطة التي نزل فيها الشبان رفقة بقية الركاب لينطلق كل إلى شأنه وغرضه الذي جاء من أجله.
- قبل الذّهاب للبحث عن فندق للمبيت فيه علينا أن نلقي نظرة على موقع الثكنة أولا، قال أحد الشبان مخاطبا رفاقه.

توجّه الشبان باتجاه الثكنة الواقعة عند مدخل المدينة بمحاذاة الطريق السيار الذي تجاوره سكة القطار الحديدية وغرضهم من ذلك هو إلقاء نظرة خفيفة عليها قبل العودة نحو وسط المدينة والذهاب للمبيت في أحد الفنادق هناك.

بعض الجنود يطوفون أمام بوابة الثكنة وهم يلبسون كمثل القفازات البيضاء على سواعدهم وفوق أحذيتهم العسكرية، كان ذلك كلّ ما رآه الشبان الذين وقفوا يتأملونهم للحظات ثم قفلوا راجعين نحو وسط المدينة باحثين عن فندق يقضون فيه ليلتهم.

- هؤلاء هم جنود الكوكسول وهم من أشد الجنود بأسا وأمهرهم تدريبا، قال أحد الشبان ثم أضاف:
سنتدرب على أيدي البعض منهم إن تم قبولنا.

- هذا إن تم قبولنا، قال أحد رفقائه ساخرا لينفجر ضاحكا رفقة رفاقه الذين كانوا يسخرون من حالهم من شدة التعب الذي حل بهم جرّاء الرحلة.

كانـت الرابعـة مسـاءً حـين بلغـوا وسـط المدينـة وشرعـوا في البحـث عـن فنـدق يقضـون الليلـة بـه، هنـا تسـاءل أحدهـم عـن كيفيـة التحـدث مـع أصحـاب الفنـدق قائـلا:

- كيـف سـنخاطبهم ونحـن لا نجيـد اللهجـة القبائليـة التـي يتحـث بهـا سـكان المدينة؟

- لا تقلـق فعـمال الفنـادق متعـوّدون عـلى اسـتقبال نـزلاء مـن كل أنحـاء البـلاد، وهـم يجيـدون كل لهجاتهـا، الأفضـل أن تقلـق بشـأن السّـعر الـذي سـيطلبونه أيّهـا الميليارديـر. أجـاب أحـد رفقائـه سـاخرا.

أخـذ الشـبان يطوفـون عـلى فنـادق المدينـة الواحـد تلـو الآخـر لكنهـم كانـوا يعـودون خائبـين في كل مـرة، فإمـا أن يكـون الفنـدق محجـوزا عـن آخـره أو أنّ ثمـن المبيـت فيـه غـالٍ جـدا وليـس لديهـم مـا يكفـي مـن المـال لقضـاء الليلـة فيـه.

بعـد أن يئسـوا مـن إيجـاد فنـدق يقضـون الليلـة فيـه قـرّر الشـبان نسـيان أمـر المبيـت مؤقتـا والتجـوّل في المدينـة لبعـض الوقـت عـلى أن ينظـروا في أمرهـم عنـد حلـول الليـل، فـإن كانـوا لا محالـة سـيواجهون مشـكلة بخصـوص هـذا الأمـر فعـلى الأقـل يؤجلـون التفكـير فيـه حتـى يحـين وقتـه.

بعد مغيب الشمس ومع غياب الحلول استقر رأي الشبان على الذهاب للمبيت في العراء قريبا من الثكنة بين الطريق السيار والسكة الحديدية حتى يكونوا في المقدمة حينما يحين موعد التجنيد مع بزوغ فجر الغد لينطلقوا متوجهين نحو المكان المحدّد.

عند وصولهم لذلك المكان تفاجئوا بوجود عدد هائل من الشبان في ذلك المكان، كانوا يقدرون بالمئات متفرقين على طول السكة الحديدية فمنهم النائم على الأرض متوسدا حقيبته ومنهم من أشعل النار ليتدفأ من البرد القارس وآخرون قد اجتمعوا يطبّلون ويغنّون في مكان معزول، بينما كانت فئة منهم قد شكلوا جماعات صغيرة يحتسون الخمور ويدخنون السجائر ويرمون زجاج الخمر لينكسر داخل الطريق السيار وسط ضحكاتهم الهستيرية وصياحهم المزعج وهم في حالة سكر متقدمة.

وصل الشبان الخمسة إلى ذلك المكان منهكين جدا لكن لم يكن بإمكانهم النوم مجتمعين. كان عليهم أن يناموا بالتناوب فينام ثلاثة، بينما يبقى اثنان للحراسة خشية تعرضهم للسرقة أو الاعتداء.

نام الفريق الأول المكون من ثلاثة شبان مفترشين الأرض ومتوسدين حقائبهم بينما بقي الشاب وأحد رفقائه يحرسان في انتظار مجيء دورهما في النوم.

كانت ليلة مقمرة صافية شديدة البرودة تتلألا فيها النجوم في كبد السماء. تمدّد الشاب على ظهره بعد أن وضع حقيبته وراحتي يده كوسادة تحت رأسه، وأخذ يتأمل النجوم المتلألئة والقمر الذي كان بدرا في تلك الليلة الباردة التي عادت به إلى أيام طفولته لمّا كان يتأمل النجوم بنفس الطريقة عندما كان يرافق والده لحراسة المزرعة ليلا في القرية التي كان يقطنها قبل انتقاله للعيش في المدينة.

عادت به الذكريات إلى أيام الصبا التي خلّفها وراء ظهره في تلك القرية الهادئة التي غادرها نحو المدينة وهو صغير جدا

استرسل الشاب في استرجاع تلك الذكريات التي أثارت شجونه، وذكرته بأيام الصبا التي وإن حملت بعض الذكريات المؤلمة والحزينة كموت والده إلّا أنها كانت تحوي الكثير من الذكريات الجميلة التي زارته في ذلك المكان وداعبت خياله تحت ضوء القمر المنير والنجوم المتلألئة التي بعثت في نفسه الطمأنينة والنشاط حتى أنه لم يعد يشعر بالنعاس رغم التعب الذي أصابه بعد يوم مليء بالحركة على العكس من رفاقه الذين كانوا يغطون في نوم عميق بما فيهم رفيقه المكلّف بالحراسة معه والذي نام جالسا من شدّة التعب الذي أصابه.

في الساعة الثالثة صباحا نهض الشبان وانطلقوا نحو الثكنة التي كانت على مسافة قصيرة منهم ليتفاجؤوا بمجرد وصولهم بالعدد الهائل من

الشبان الذي سبقوهم إلى هناك.

كان هناك ما يقارب العشرة آلاف شاب قدموا من مختلف أنحاء الوطن، من شرق البلاد وغربها، من شمالها وجنوبها. كلهم قدموا بحثا عن شيء واحد وهو عمل يعيلون به أسرهم ويبنون من خلاله مستقبلهم.

وقفت تلك الأمواج البشرية الهائلة أمام بوابة الثكنة مشكلة صفا بعرض عشرين شخصا وبطول مئات الأمتار.

في الوقت نفسه كان جنود الكوكسول يطوفون حول الصفوف لتنظيمها وهم يعلّقون الهراوات في أحزمتهم ويحملون في أيديهم أحزمة عسكرية يضربون بها كل من يحيد عن الصف أو يخرج منه أما الضباط وأصحاب الرتب العالية فقد كانوا واقفين أمام البوابة يراقبون ما يحدث من بعيد ويتبادلون أطراف

الحديث بهدوء شديد. لم يتقدم منهم تجاه الصفوف سوى واحد كان يلبس لباسا مدنيا حيث أخذ يطوف أمام الصفوف جيئة وذهابا وهو يميل رأسه إلى الأمام ويعيده متوعدا بابتسامة ساخرة ثم قال:
- تريدون الإلتحاق بالجيش إذن؟ حسنا، الليلة سنجعلكم تسهرون سهرة أم كلثوم.

لم يفهم أحد من أولئك الشبان معنى ولا مغزى كلامه الذي كان مبهما وغير واضح، كل ما كانوا يعرفونه أن أم كلثوم هي مغنية مصرية عاشت في القرن الماضي. وعلى كلّ لم يكونوا مهتمين كثيرا بفهم كلامه فكل تركيزهم كان منصبّا على الدخول إلى الثكنة وتحقيق هدفهم الذي جاؤوا من أجله.

علم بعضهم فيما بعد حين التحقوا بالجيش أن سهرة أم كلثوم هي أحد أنواع العقوبات الليلية التي تُسلّط على الجنود الواجب في حقهم العقاب، حيث كانت ليالي المعاقبين تطول كطول السهرات التي كانت تحييها الفنانة الراحلة، فأوقات المعاناة تصبح طويلة بشكل رهيب وإن كان زمنها يسيرا.

مرّ وقت ليس بالقصير تمّ فيه ترتيب الصفوف بصعوبة لكثرة تلك الجموع التي تدفّقت من كل أنحاء البلاد رغبة في الهروب من شبح البطالة.

كان الصبح قد انبلج عندما صاح أحد الضباط عبر مكبر الصوت:
- فليلتزم الجميع الهدوء. سنبدأ بإدخالكم على دفعات لإجراء الفحوص والاختبارات.

ما إن سمعوا ما قاله الضابط حتى ثارت ثائرة الصفوف الخلفية حيث

كان كل واحد منهم يريد أن يكون ضمن الدفاعات الأولى التي تدخل الثكنة. كانوا يخشون ألّا يصلهم الدور إلّا وقد فات الأوان فأصابهم الهياج وبدأوا بالاندفاع إلى الأمام والضغط على الصفوف الأمامية التي اندفعت بدورها إلى الأمام تحت الضغط الشديد الذي فرض عليها، وتخطت الحدّ الذي حدّد لها فاستقبلهم الجنود بالرّكل والضّرب بالأحزمة العسكرية بكل قسوة ووحشية فلم يجدوا بدّا من الرجوع للخلف والهروب في كل الاتجاهات مشكلين هجوما معاكسا على الخطوط الخلفية التي اضطرّت بدورها للتراجع إلى الخلف.

كان من يسقط أثناء تلك المطاردة يتعرّض للرفس تحت مئات الأقدام الهاربة في كل اتجاه فلا ينهض إلا وقد أثخنته الجراح

كان ذلك ما حدث لأحد الشبان الخمسة الذي تعثر بالرصيف وسقط وسط تلك الجموع الهائلة التي أشبعته رفسا بأقدامها، وكاد أن يلفظ أنفاسه تحتها لولا أن رفقاءه الأربعة الذين كانوا قريبين منه تفطّنوا له في الوقت المناسب فأسرعوا نحوه وأحاطوا به مشكلين طوقا حوله ليتمكّن من النهوض والهرب، حين نهض كانت الدماء تكسو وجهه الذي ارتطم بالرصيف عند سقوطه لكنه لم يكن يبالي بذلك وعاد للدخول في الصفوف من جديد وكأن شيئا لم يحدث.

استمرت حالة الكرّ والفرّ بين تلك الأمواج البشرية والجنود المكلفين

بالتجنيد منذ بزوغ الفجر حتى الثانية زوالا، شبعت خلالها الصفوف الأمامية ركلا وجلدا بالأحزمة العسكرية الجلدية السميكة على يد الجنود المكلفين بتنظيم الصفوف دون أن يدخل أحد إلى الثكنة، فقد كان نفس السيناريو يتكرّر في كل مرة يهمون فيها بإدخال أولئك الشبان.

لم ييأس الشبان تماما رغم التعب الكبير الذي أصابهم فقد كانوا مصمّمين على المضي قدما والمكابدة حتى تبلغ النفس جهدها، وهنا حدث ما لم يكن بالحسبان وأُخلطت كل أوراقهم، فقد أعلن أحد الضبّاط بواسطة مكبر الصوت أنهم سيدخلون فقط من لديهم استدعاءات كانوا قد حصلوا عليها من قبل، أما البقية ممن ليس لديهم استدعاء فعليهم المغادرة فورا والعودة من حيث أتوا.

أصيب الشبان بالخيبة الشديدة واليأس بعد كل ما بذلوه من جهد طوال تلك المدة، أحسّوا بالمرارة الشديدة وشقق الألم نفوسهم لكن لم يكن بإمكانهم فعل شيء حيال ما حصل لهم، فلن يسمع أحد شكواهم إن اشتكوا، فالضعفاء لا يحق لهم الشكوى أو الاعتراض إن اتخذ الأقوياء القرارات ومن أراد الاعتراض فيجب أن تكون له السلطة والقوة لفعل ذلك.

في تلك اللحظة تذكر الشاب وصية والدته وأدرك أنها كانت محقة في كلامها وأنّ الضعف في هذا العالم هو بالفعل جريمة عقوبتها المعاناة والاضطهاد طوال العمر

في النهايـة لم يجـد الشـبان بـدا مـن الانسـحاب و مغـادرة المـكان ليولّـوا مدبريـن اسـتعدادا للعـودة إلى ديارهـم بخفـي حنـين بعـد انقطعـت كل السـبل وسـدّت كل الـدروب في وجوههـم.

في تلـك الأثنـاء ظهـر أمـام الشـبان مشـكلة أخـرى كانـت بانتظارهـم حيـث سـاءت حالـة رفيقهـم المصـاب كثـيرا بعـد أن تورّمـت قدمـه اليـسرى التـي تعرضـت للرّفـس حتـى أنـه أصبـح عاجـزا عـن المـشي

هنـا كان عليهـم نسـيان كل مـا أصابهـم والاهتـمام بصحـة رفيقهـم الـذي كان في حالـة يـرثى لهـا فـما كان منهـم إلا أن حملـوه إلى أحـد مستشـفيات المدينـة.

بعـد فحصـه تـم إخبارهـم أن عليـه المبيـت في المستشـفى ولـن يتمكـن مـن المغـادرة؛ لأنـه كان محمومـا ووجـب العنايـة بـه لـذا فعليهـم انتظـار خروجـه في الغـد.

أخـذ الشـبان يهيمـون في المدينـة وعلامـات الحـسرة والهـم باديـة عـلى وجوههـم إلى أن هبـط الليـل، لم يكـن لديهـم مـكان يـأوون إليـه سـوى أحـد الحدائـق العموميـة التـي قضـوا بهـا الليلـة منتظريـن طلـوع النهـار لاصطحاب خامسـهم والعـودة إلى ديارهـم بخفـي حنـين.

في اليـوم التـالي وبعـد خـروج رفيقهـم مـن المستشـفى اسـتعدّ الشـبان للعـودة إلى مدينتهـم وهـم يجـرّون أذيـال الخيبـة مـن تجربتهـم الأولى التـي كانـت مجـرد إضاعـة للوقـت وزيـادة في معاناتهـم، كـما فكّـر الشـبان الذيـن شـعروا بالحـزن الشـديد لكنهـم كبتـوه في أنفسـهم ولم ينطـق أيّ منهـم بـأيّ كلمـة.

عاد الشـبان الذين ورغم انحطاط معنوياتهم إلا انهم كانوا يؤمنون أن ما حدث كان "مكتوب" كما يطلق عليه المغاربة ومعناه أنّ الأمر كان مقدرا له أن يحدث .

بعـد تلـك الرحلـة المحبطـة عـاد الشـبان لمـا كانـوا عليـه مـن قبـل في انتظـار فرصـة أخـرى تتـاح لهـم، فقـد عزمـوا عـلى المحاولـة المـرة تلـو الأخـرى حتـى يتمكنـوا مـن الظفـر بعمـل في الجيـش؛ لأن ذلـك هـو العمـل الوحيـد الـذي سـيوفر لهـم حيـاة كريمـة ويخلصهـم مـن بطالتهـم والأعـمال الشـاقة التـي أنهكـت أجسـادهم.

مـرت حـوالي ثلاثـة أشـهر وجـاءت تلـك الفرصـة المنتظـرة لتبـدأ تفاصيـل مغامـرة جديـدة لأولئـك الشـبان الذيـن رغـم الخيبـة الكبـيرة التـي أصابتهـم في رحلتهـم الأولى إلا أنهـم لم يفقـدوا الأمـل وقـرروا تجريـب حظهـم مـرة أخـرى لعـلّ النجـاح يكـون حليفهـم هـذه المـرة.

الوجهـة هـذه المـرة سـتكون نحـو مدينـة باتنـة عاصمـة الأوراس التـي انطلقت منهـا أول رصاصـة في الفاتـح مـن نوفمـبر عـام 1954 معلنـة عـن انـدلاع أحـد

أعظم الثورات في القرن العشرين.
تقلص عدد الشبان إلى ثلاثة في مغامرتهم الجديدة بعد رفض اثنين منهما المجازفة مرة أخرى بعد ما لاقوه من معاناة في مغامرتهم الأولى التي كانت بمثابة درس قاسٍ لهما، لم ينقص ذلك من عزيمة البقية الذي كانوا يرجون أن يحالفهم الحظ في مغامرتهم الجديدة فلا يدري المرء متى وأين يحالفه النجاح فالحياة مليئة بالمفاجآت لها تقلبات عجيبة لا تخضع للعادات واالقوانين.

صباح اليوم الموعود حمل الفتى أغراضه مودعا والدته كما فعل في المرة الأولى لينطلق في اتجاه محطة المدينة أين اتفق مع رفيقيه على الالتقاء هناك للانطلاق في رحلتهم الثانية.

خرج الشاب اليافع نحو رحلته المجهولة مهموما مكسورا، كان يسير منكس الرأس بالكاد يرى بضعة أمتار أمامه مارّا بين أزقة المدينة من نفس الطريق الذي اعتاد المرور به عند ذهابه للعمل في المخزن، استمر بالسير حتى بلغ أحد الطرق التي تمر قريبا من ذلك المخزن.

كان بعض زملائه السابقين ما زالوا يعملون هناك، من بعيد نظر الشاب إليهم وهم جالسون في أحد المقاهي المجاورة للمخزن يتبادلون المزاح والضحك ويرتشفون القهوة كما هي عادتهم كلّ صباح قبل انطلاقهم في العمل، زاده ذلك المنظر ألما وحسرة، أحسّ كأنما قلبه يتقلّب على جمر

حـار وتمنـى لـو أنـه كان جالسـا معهـم ثـم أخـذ يهمس في نفسـه بحزن شـديد:
-يـا ليتنـي كنـت معهـم، يـا ليتنـي رضيـت بمـا أنـا عليـه كـما هـم راضـون بمـا هـم عليـه، لتنهمـر عليـه سـيول مـن الأسـئلة لم يجـد لهـا جوابـا شـافيا وزادت مـن حزنـه وألمـه.

- لماذا لا أستسلم للأمر الواقع كما فعلوا هم؟

- لماذا لا أرضى بالعمل معهم وأريح نفسي من هذه المعاناة؟

- من منا المخطئ ومن المصيب؟

- هـل أنـا مـن يطمـح إلى شيء لـن يتحقـق أبـدا أم هـم الذيـن لا يملكـون الطمـوح؟

- إلى أين أنا ذاهب وما الذي سيحدث هذه المرة؟

- إلى متى سأظل أطارد المجهول؟

- هـل كتـب عـلي أن أعيـش شـقيا طـوال حيـاتي أم أن الأمـر سيسـتقيم بعـد اعوجاجـه؟

أرهقـت تلـك الأسـئلة التـي لم يجـد لهـا جوابـا كاهلـه وزادتـه هـمّا عـلى هـم حتـى أنـه كاد يهـمّ بالعـدول عـن الأمـر تمامـا والعـودة مـن حيـث أتى، لكـن السـيل كان قـد طغـى ووقـت الرجـوع قـد ولى وانقـضى فهـو لـن يسـتطيع التراجـع عـما نـوى بعـد أن أعطـى كلمتـه واتفـق مـع رفيقيـه اللذيـن ينتظرانه في المحطـة للانطـلاق نحـو مـا ينتظرهـم.

وصـل الموعـد المحدد فتحركت الحافلـة مغادرة المدينة التي كان الشـبان الثلاثة

يودعّونها بأعينهم التي كانت ترمق أزقتها وشوارعها حتى خرجوا منها، قد يكون وداعا مؤقتا لبضعة أيام فقط وقد يطول شهورا طويلة إن هم وفّقوا فيما هم ساعون إليه، ذلك ما تركه الشبان للقدر أو المكتوب كما يطلق عليه سكان البلاد.

استمرت الرحلة باتجاه مدينة الجسور المعلقة قسنطينة التي ستكون محطة عبور ينطلقون منها تجاه مدينة باتنة التي تبعد عنها بمئات الكيلومترات.

عند الحادية عشرة صباحا دخلت الحافلة محطة المدينة منهية الجزء الأول من رحلتهم، ما إن وصل الشبان المحطة حتى تفاجؤوا بوجود المئات من الشبان الذين ينتظرون الحافلات المتوجهة لمدينة باتنة، كان ذلك مؤشرا سلبيا جعل الإحباط يتسرّب لقلوب الشبان الذين أدركوا صعوبة المأمورية التي تنتظرهم.

كان واضحا أن ما حدث لهم في بجاية قد يتكرر معهم مرة أخرى بل لعلّ ما ينتظرهم هناك سيكون أسوء من ذلك بكثير فاليوم يُعرف من صباحه كما يقول أهل البلد،

وقف الشبان الذين خيم الصمت عليهم للحظات يتأملون الأعداد الهائلة من الشبان الذين ظلوا يتوافدون على المحطة بإحباط شديد.

- مـن المؤكـد أننـا سـنجد الآلاف مـن الشـبان قـد سـبقونا إلى هنـاك، قـال أحـد الشـبان والإحبـاط واضـح عليـه مـن نـبرة صوتـه ثـم أضـاف غاضبـا:
وكأنّ أهــل البــلاد كلهــم اتفقــوا عــلى الذهــاب إلى هنــاك عندمــا ســمعوا بمجيئنــا.

لم يدر رفيقاه أ يضحكان أم يبكيان لما أصابهما من إحباط وألم واكتفيا بالنظر إلى بعضهـما البعـض في صمـت، ففي بعض الأحيـان يكون الصمت أبلـغ من الكلام.

- دعنـا نأخـذ وجبـة خفيفـة ثـم نـرى مـا يمكـن أن يحـدث، قـال أحدهـم ثـم انطلـق نحـو أحـد محـلات الوجبـات الخفيفـة وتبعـه رفيقـاه اللـذان تثاقلـت خطواتهـما بفعـل الإحبـاط الشـديد الـذي أصابهـما،

أخـذ الشـبان الذيـن كانـت معنوياتهـم في الحضيـض وجبـة خفيفـة ثم جلسـوا عـلى إحـدى الكـراسي صامتـين يراقبـون الجمـوع المتناثـرة في المحطـة بأعينهـم الحزينـة التـي تتجـول يمينـا وشـمالا.

بلغـت السـاعة منتصـف النهـار وبقـي الوضـع عـلى حالـه ومـن دون أي تغيـير كانـت كلـما دخلـت إحـدى الحافـلات انقـض عليهـا المئـات مـن الشـبان كـما تنقـض الذئـاب الجائعـة عـلى فريسـتها كل منهـم يريـد الصعـود أولا، كانـوا يتدافعـون بقـوة للصعـود ومنهـم مـن كانوا يحملـون بعضهم البعـض ويقفزون

مـن نوافذهـا إلى الداخـل في ظـلّ الزحـام الشـديد عـلى البـاب الأمامـي الوحيد الـذي كان مفتوحـا. لم يسـتطع رجـال الشرطـة القلائـل المتواجديـن هنـاك فعـل أي شيء واكتفـوا بمراقبـة الوضـع مـن بعيـد دون أن يحركـوا سـاكنا.

بعـد فـترة مراقبـة وصمـت طويلـة وحزينـة لذلـك المشـهد قـال الشـاب الـذي كان جالسـا يتوسـط رفيقيـه.

- أي همج هؤلاء؟ كيف يتقاتلون من أجل الصعود إلى الحافلة؟
أجابـه أحـد رفيقـاه ضاحـكا: قريبـا سـتكون همجيـا مثلهـم يـا صديقـي، لـن تتمكـن مـن الصعـود إن لم تفعـل مـا يفعلـون قبـل أن يضيـف بصـوت يمتـزج حزنـا وغضبـا: لـن ننتظـر هنـا اليـوم كلـه فكلـما مـرّ الوقـت زاد عـدد الوافديـن والمشـكلة أنهـم كلهـم ذاهبـون إلى حيـث نحـن ذاهبـون.

مـرة أخـرى كان جـواب رفيقيـه عـلى كلامـه المحبـط هـو الصمـت فكـما قيـل "رب صمـت أبلـغ مـن كلام".

انتظـر الشـبان لبعـض الوقـت لعـل عـدد المتوافديـن ينقـص فيتمكنـون مـن الصعـود مـن دون تدافـع لكـن العكـس هـو الـذي كان يحـدث فقـد كان عـدد الشـبان يـزداد كلـما مـرّ الوقـت فـما كان منهـم إلّا أن دخلـوا المعمعـة وفعـل مـا كان يفعلـه أولئـك الشـبان، بعـد أن فشـلوا في الصعـود لمرتـين أسرعـوا في الثالثـة بمجـرد أن وصلـت إحـدى الحافـلات باتجاهـا للصعـود لكـن العـشرات

كانـوا قـد سـبقوهم نحوهـا، في غمـرة ذلـك التزاحـم والتدافـع انفصـل الشـاب عـن رفيقيـه الذيـن تمكنـا مـن الصعـود بعـد جهـد كبـير، حـاول الشـاب اللحـاق بهـما فاندفـع بقـوة كبـيرة وأخـذ يشـق تلـك الجمـوع نحـو بـاب الحافلـة الـذي بلغـه بعـد جهـد كبـير ثـم هـم بالصعـود وإذا بـه يفاجـأ بالبـاب وهـو يغلـق في وجهـه لتتحـرك الحافلـة مغـادرة المحطـة وعـلى متنهـا رفيقيـه الذيـن كانـا يبحثـان عـن ثالثهـما بعينيهـما مـن النافـذة حتـى ابتعـدت الحافلـة وغـادرت المحطـة.

★★★★★

الفصل الثالث

هنا يتدرب الأبطال

وقف الشاب متسمرا في مكانه وعيناه لا تفارقان المكان الذي خرجت منه الحافلة ثم أخذ يمشي ذهابا وإيابا وسط تلك الجموع التي لم يكن يحس بوجودها وهو يتساءل في نفسه:
ما الذي سأفعله الآن؟ هل ألحق بهما؟ كيف سأجدهما وسط هذه الجموع الغفيرة؟ هل أعود إلى البيت؟ لا لن أفعل ذلك سيصفونني بالجبن وسيتهمونني بالهروب إن لم ألحق بهما؟ ليتني لم أبع ذلك الهاتف اللعين.

بقي الشاب حائرا بعد أن تشابكت الأفكار في رأسه واحتار كيف يفعل، بينما هو على ذلك الحال إذ أحسّ بيد توضع على كتفه الأيمن من وراءه، التفت مستغربا ليرى من يكون صاحب تلك اليد.
- أهلا بك يا صديقي، صاح بفرح مخاطبا صاحب تلك اليد
-كيف حالك؟هل أنت بخير؟
- الحمد لله أنا في أحسن حال.
في حقيقة الأمر لم يكن صاحب تلك اليد صديقه ولا قريبه بل كان قد عرفه في الإكمالية عندما كانا يدرسان في قسمين متجاورين، ومع ذلك فقد فرح بلقائه كما لو أنه التقى بأخيه، فالغريب للغريب نسيب كما قيل والعدو في البلاد الغريبة يصبح صديقا.

- أنت متوجه إلى مدينة باتنة، أليس كذلك؟ سأل الشاب.
- أجل أنا ذاهب إلى هناك ومنها سأتوجه إلى مدينة بسكرة حيث ينتظرني أخي هناك. أجاب رفيقه الجديد

مدرسة التجنيد في بسكرة هي المدرسة التطبيقية للقوات الخاصة أو رجال المارينز كما يطلق عليهم في الغرب وقد تكون لديه فرصة أكبر للنجاح في مسعاه إن ذهب هناك لا سيما مع كثرة الشبان المتوجهين نحو مدينة باتنة حيث سيكون الأمر جد معقد فيها، ذلك ما جال في خاطر الشاب المضطرب الأفكار.

- إنها فرصة مواتية قد لا تتاح لي إذا ذهبت إلى باتنة، يحسن بي أن لا أضيعها. همس الشاب في نفسه ثم قال مخاطبا الرفيق الجديد:
- حسنا سنذهب معا إلى هناك.
- حقا؟ سيكون ذلك رائعا. ردّ الرّفيق الجديد.

تغيرت خارطة طريق الشاب تماما وأخذ وجهة مختلفة عن وجهة رفيقيه لكن رغم اختلاف طرقهم فإن الهدف بقي واحدا هو الحصول على عمل مستقر ينهي معاناتهم الطويلة

لم يطل انتظار الرفيقين الجديدين في المحطة حتى صعدا باتجاه عاصمة

الأوراس في حافلة خط عملها بين مدينتي قسنطينة وقالمة يبدو أن سائقها قد أغراه وأسال لعابه كثرة الشبان المتوجهين إلى مدينة باتنة فقرر المغامرة وربح بعض المال واضعا لافتة "رحلة" في مقدمة الحافلة المتوجهة نحو عاصمة الأوراس حتى يتفادى المتاعب عند الحواجز الأمنية.

انطلقت الرحلة التي لم تطل كثيرا وانتهت في حدود الرابعة مساءً لينقضي بذلك الجزء الثاني من تلك الرحلة.

بمجرد وصولهما اتجه الشابان مباشرة إلى حيث موقف حافلات مدينة بسكرة التي تعدّ بوابة الصحراء الكبرى. على عكس ما كان الحال عليه في محطة قسنطينة كانت الحافلة التي توشك على الانطلاق شبه فارغة لذا كان عليهما الانتظار لبعض الوقت حتى تمتلئ المقاعد.

كان ذلك أوّل مؤشر إيجابي صادف الشاب منذ خروجه من البيت صباحا، وذلك ما جعله يحسّ بالراحة بعد أن تسرّب الأمل إلى قلبه من جديد بعد أن كاد يفقده إثر ما شاهده في قسنطينة. ارتفعت معنوياته كثيرا بعد أن فكر أن ذلك يعني أن عدد الشبان المتوجهين إلى مدينة بسكرة ليس كبيرا وأن فرصته في تحقيق ما يصبو إليه باتت وفيرة.

شعر بالارتياح بعد أن أحسّ أنه اتخذ القرار الصحيح وأنه أوشك على تحقيق الهدف الذي خرج من أجله بما أن كل الأحداث تصبّ في اتجاه هذا الأمر

- يبدو أن الحظ سيبتسم لي أخيرا، قال الشاب في نفسه مبتهجا
بعد فترة انتظار قصيرة داخل المحطة تحرّكت الحافلة متوجهة نحو مدينة الزيبان.

كان جميع الرّكاب منهكين من التعب صامتين وعيونهم مسمّرة في نوافذ الحافلة التي راحت تتوغّل في المناطق الشبه صحراوية التي تسلب الألباب بجمالها وروعتها، لا سيما مع اقتراب الشمس من الغروب في الوقت الذي كان الطفل "عقبة " يروح ويجيء في الممرّ الموجود بين الكراسي غير مبال بنداء أمه المتكرر.

- عقبة توقف، عد إلى هنا، إلى أين تذهب أيها الشقي؟.
استمرت الرحلة لساعات لم يحسّ الشاب فيها بالتعب فقد أنسته المناظر الساحرة الفاصلة بين المدينتين والارتياح الذي أحسّ به مع رفيقه الجديد الإحساس بالتعب. بعد غروب الشمس بمدة معتبرة وصلت الحافلة المدينة التي تشتهر بالنخيل والتمور ذات الجودة العالية التي قل نظيرها في العالم كله.

دخلت الحافلة متوجهة إلى المحطة أين انتهت رحلة الشابان اللذان تنفسا الصعداء بعد يوم كامل من العناء

-الآن انتهت معاناتنا وآن لنا أن نتذوق بعض الراحة بعد هذه الرحلة الشاقة. قال الشاب لرفيقه وهو يبتسم ابتسامة ارتياح.

نزلا في المحطة ثم شرعا في البحث عن شقيق ذلك الشاب الذي كان قد تواعد على الالتقاء به داخل المحطة بحثا في أرجائها وعند مداخلها الثلاث لكنه لم يكن هناك

كان شقيقه متذمرا وغاضبا جدا، أخذ يتمتم بكلمات تعبر عن غضبه وهو يتساءل:

- أين ذهب؟ لقد اتفقنا على الالتقاء هنا.

اكتفى الشاب الذي انهارت معنوياته وأصابه الإحباط في تلك اللحظة بإجابة مقتضبة:

- ربما خرج ليشتري شيئا ما ثم يعود.

- حسنا علي الاتصال به الآن، علينا البحث عن كابينة للهاتف في وسط المدينة فالكابينة الموجودة هنا مغلقة.

- فلننطلق إذن فقد تأخر الوقت كثيرا

انطلق الشابان باتجاه الطريق المؤدي نحو وسط المدينة بحثا عن هاتف للاتصال بشقيق رفيقه الشاب، لسوء حظهما لم يكن أي منهما يمتلك هاتفا نقالا فقد اضطرا لبيع هاتفيهما المتواضعين من أجل تأمين ثمن تلك الرحلة.

كانا يحثان السير نحو وسط المدينة وقد خيم عليها صمت رهيب جراء الهم الكبير الذي أصابهما، زاد من ذلك تأخر الوقت كثيرا فقد كان المؤذن ينادي لصلاة العشاء وهما لم يعبرا بعد الجسر الكبير المؤدي إلى قلب مدينة بسكرة، ما إن وصلا إلى وسط المدينة حتى تفاجآ بما لم يتوقعاه ولم يخطر ببالهما تماما.

-يا إلهي، ما الذي يحدث معنا ؟ صاح الشاب مندهشا بعد أن أصابه الذهول مما رأى في ذلك المكان

كانت هناك ألوف مؤلفة من الشبان يجوبون المدينة وهم حاملين الحقائب على ظهورهم، لم يتطلب الأمر الكثير من الذكاء لمعرفة الغرض من وجودهم هناك، فقد كان واضحا أنهم غرباء وأنهم قدموا إلى المدينة من أجل التجنيد. زاد ذلك المشهد من انحطاط معنويات الشابين اللذين كانا محطمين نفسيا ومنهكين جسديا.

- ها قد تبعنا شبان البلاد كلهم إلى هنا، لو ذهبنا إلى أقصى الصحراء للحقوا بنا، قال رفيق الشاب غاضبا قبل أن يدخل أحد كابينات الهاتف أين اختفى هناك لبعض الوقت من أجل الاتصال بأخيه.

لم يجد الشاب الذي وقف منتظرا رفيقه على الرصيف غير عمود كهربائي مضيء في وسط الرصيف ليجلس على قاعدته حزينا مهموما مكسورا.

كان بالكاد يحسّ بالناس التي كانت تمرّ من أمامه ومن خلفه وينظرون إليه بعضهم بشفقة والبعض الآخر باستغراب. كان يجلس منكس الرأس والندم يأكل قلبه الذي اعتصر ألما عندما تذكر صديقيه الذين أخذا وجهة غير وجهته. لم يرفع رأسه عن الأرض وهو يتساءل في نفسه :

ترى أين هما وماذا يفعلان الآن؟ وماذا يمكن أن يفعلا في الغد؟

ثم أخذ يلوم نفسه ويعاتبها على عدم لحاقه بهما:

يالي من أحمق لم ألحق بهما؟

لماذا جئت إلى هنا؟

هل ألحق بهما الآن؟

كيف وقد تأخر الوقت كثيرا ولم يعد ذلك ممكنا؟.

لم يفق من تساؤلاته تلك إلا عندما أحس بيد تلامس كتفه الأيسر، كانت يد رفيقه مرة أخرى.

- هيا بنا علينا العودة إلى المحطة مرة أخرى.

- ماذا تقول؟ و لماذا؟ لم لا ننتظره هنا حتى يأتي ؟

- لا نستطيع انتظاره هنا لأني لم أتمكن من الاتصال به، يبدو أن هناك تشويشا في جهة الاتصال الخاصة به.

- وماذا إن لم نجده هذه المرة أيضا؟

- لا أعلم ما الذي سيحدث فليس هناك إلا شيء واحد مؤكد وهو أننا اتفقنا على الالتقاء هناك

ثم أضاف:

على كلّ سنرى ما يمكن أن يحصل عند وصولنا.
قفل الشابان عائدين من فورهما نحو المحطة ومظاهر البؤس والتعب والخيبة والألم بادية على وجهيهما، خيم الصمت عليهما واعترتهما رغبة قوية في البكاء والصراخ بأعلى صوتهما للتخفيف من الحزن الذي أحسا به. استمرا بالسير حتى بلغا باب المحطة الشمالي الذي ما إن دخلاه حتى سمعا صوتا يخترق سكون المحطة وينادي من مكان غير بعيد عنهم: أخي، أخي.....

كان رجلا ضخم الجثة مستدير الوجه يقف بجانب أحد الأكشاك الموجودة داخل المحطة.
-إنه أخي، صاح رفيق الشاب بفرح كبير ثم خاطبه قائلا:
- أين كنت؟ لقد بحثنا عنك كثيرا.
- بل قل أنت أين كنت؟ أنا أنتظرك هنا منذ المساء، أجاب الرجل
- لقد مررنا من هنا عدة مرات فكيف لم نرك؟ قال رفيق الشاب
-دعك من هذا الآن، ليس هذا وقتا مناسبا للنقاش، لقد تأخر الوقت كثيرا وعلينا أن نذهب بسرعة.

قال الرجل ارتفعت معنويات الشابين الذين انطلقا في إثر ذلك الرجل باتجاه وسط المدينة مجددا. لم تكن لدى الشاب أدنى فكرة عن المكان الذي يتوجهون إليه، لكنه لم يسأل ولم يتفوّه بأيّ كلمة لأنه كان متأكدا أنهم ذاهبون للمبيت في مكان ما وذلك ما جعله يحس بالراحة والطمأنينة حيث سيستريح أخيرا بعد يوم طويل وشاق.

- علينا أن نشتري بعض الخبز والطعام من أجل العشاء فقد أغلقت كل المطاعم أبوابها، قال الرجل الذي أخذ يطوف بالشابين على مخابز المدينة الواحدة تلو الأخرى من دون جدوى، فقد نفذ الخبز من كل المخابز التي بيع كل ما فيها لآلاف الشبان الذين توافدوا على تلك المدينة.

لم يعثروا سوى على أحد الشبان الصغار وهو يبيع خبزا قديما على أحد الأرصفة بثلاثة أضعاف عن سعره الحقيقي.

- لسنا مضطرين لشراء خبز قديم، سنشتري بعض البسكويت مع الحليب أو العصير من ذلك المحل، قال الرجل مشيرا بيدهإلى أحد المحلات القريبة ثم انطلق نحوه وتبعه الشابان.

بعد اقتناء ما يحتاجونه من ذلك المحل سلك الثلاثة إحدى الطرق المتجهة شمال المدينة تبيّن فيما بعد أنه يؤدي إلى الثكنة التي كان المئات من الشبان يفترشون الكرطون وينامون قريبا منها.

مر الشاب و رفيقاه على هؤلاء الشبان وتجاوزوهم إلى ما وراء الثكنة حيث دخلوا إلى الحي العسكري التابع لها.

لم يكونوا مضطرين للتوقف للاستجواب أو إظهار وثائقهم لأن ذلك الرجل

كان على معرفة مسبقة بالحارس باعتباره كان مقيما في ذلك الحي في وقت سابق، اكتفيا بتبادل تحية سريعة ثم صعد الثلاثة سلم أحد البنايات أين توقف الرجل أمام أحد الأبواب وشرع في قرعه، فُتح الباب فإذا شاب يبدو في منتصف الثلاثينات من عمره يستقبلهم بفرح شديد داعيا إياهم للدخول بعد أن بادلهم التحية.

عرف الشاب فيما بعد حوار قصير مع مستضيفهم الذي عاملهم بلطف شديد أنه ابن مدينته التي كان قد غادرها منذ أكثر من عشر سنوات للالتحاق بالجيش.

كان عليهم أن يتناولوا بعض الطعام بسرعة حتى يناموا لبعض الوقت ليستيقظوا في حدود الساعة الثالثة صباحا أين تنتظرهم المهمة التي جاؤوا من أجلها.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين توجّه الشابان بعد انتهائهما من تناول الطعام إلى الغرفة التي خصّصت لهما لينام فيها بينما نام الرجل وصديقه الشاب في الغرفة المقابلة. كانا منهكين جدا وما إن وضعا رأسيهما على الفراش حتى غطّا في نوم عميق ولم يستيقظا إلا وصوت الرجل يخاطبهما:

- انهضا بسرعة لقد حان الوقت، علينا أن نذهب.

نهض الشابان بسرعة، غسلا وجهيهما على عجل ثم همّ الثلاثة بالانطلاق

نحـو الثكنـة، في ذلـك الوقـت كان الفتـى يبحـث بعينيـه عـن الشـاب الـذي اسـتقبلهم ليشـكره عـلى حسـن الضيافـة ويودعـه، نظـر تجـاه الغرفـة التـي ينـام فيهـا فـإذا هـو مسـتغرق في نـوم عميـق، شـعر بالأسـف لأنـه لم يتمكـن مـن شـكره و توديعـه لكنـه قـال في نفسـه :

- لابد أن ألتقيه يوما في مدينتنا لأشكره على صنيعه.

قـال ذلـك وهـو لم يكـن يعلـم أنهـا المـرّة الأخـيرة التـي تقـع فيهـا عينـاه عـلى ذلـك الشـاب المسـكين الـذي سـيقتل بعـد أشـهر قليلـة رفقـة عـشرة جنـود شـبان آخريـن جندلـوا في أعـالي الجبـال بعيـدا عـن أهاليهـم وديارهـم في كمـين تـم نصبـه لهـم يـوم عيـد الفطـر ليغـادروا الدنيـا والنـاس يحتفلـون بالعيـد، ذنبهـم الوحيـد أنهـم ولـدوا في عائـلات فقـيرة فلـم يجـدوا غـير الجيـش مهنـة لتوفـير لقمـة العيـش لهـم ولأهاليهـم الذيـن احترقـت قلوبهـم حزنـا عليهـم بعـد أن أُزهقـت أرواحهـم في ريعـان الشـباب وعـادوا إلى عائلاتهـم في توابيـت تحمـل أشـلاءهم الممزقـة.

غـادر الثلاثـة الحـيّ العسـكري مسرعـين باتجـاه الثكنـة التـي وصلوهـا قبـل بـدء موعـد التجنيـد لـذا كان عليهـم الانتظـار والاسـتماع لنصائـح رفيقهـما الـذي كان رجـلا لطيفـا جـدا. أخـذ يزودهـما ببعـض النصائـح الواجـب التقيـد بهـا كالبقـاء قريبـين مـن بعضهـما في حـال وقـوع أي تدافـع، الاسـتقامة والاعتـدال في الوقـوف والمـشي أمـام ضبـاط التجنيـد، عـدم الخـوف والارتبـاك أثنـاء إجـراء الفحـص الطبـي وغيرهـا مـن النصائـح.

بعد فترة من الانتظار صدر الأمر بالاصطفاف أما الممرّ المؤدّي لمدخل الثكنة استعدادا للدخول من أجل الإجراءات اللازمة للتجنيد. دخل الشابان وسط الجموع الغفيرة التي تقدّر بالآلاف وسط مراقبة رفيقهما الذي بقي على الرصيف المقابل يراقب ما يحدث من بعيد.

بعد فترة وقوف طويلة في تلك الصفوف اكتفى خلالها بعض الجنود بالطواف أمام الصفوف، في حين كان بعض الجنود الآخرين يمشون برشاقة فوق أحد الجدران المحاذية للصفوف جيئة وذهابا مراقبين تلك الأمواج البشرية من الأعلى.

بدا وكأنهم تعمدوا إبقاء تلك الجموع واقفة لمدة طويلة لاختبار قوة التحمل لديهم واختبار قدراتهم قبل تجنيدهم، بعد ذلك الموقف الذي كان طويلا بعض الشيء أُمر المصطّفون بالجلوس نصف جلسة استعدادا لإدخالهم إلى الثكن، وقف مظليان اثنان أمام الصفوف وبدأ كل منهما يختار أحد الجالسين ويأمره بالوقوف والانطلاق نحو البوابة، كان على الشابان المختاران أن ينطلقا جريا أحدهما أمام الآخر بين السورين العاليين المؤديين إلى البوابة الكبرى.

كان السوران ذوي علو كبير بطول يفوق الخمسين مترا وينتهيان بثلاثة ممرّات أحدها يؤدي إلى ميدان التدريب الذي أدخل إليه المترشحون

والـذي علّـق عـلى بوابتـه لافتـة كتـب عليهـا: **"هنـا يتـدرب الأبطـال"**
بعـد فـترة وجيـزة كان الشـابان قـد تقدمـا وأصبحـا في الصفـوف الأماميـة. ،أشـير إلى رفيـق الشـاب أولا للانطـلاق رفقـة أحـد المترشـحين لتسـقط وصيـة الرجـل الأولى في المـاء وهـو الـذي كان قـد أوصاهـما بالبقـاء قريبـين مـن بعضهـما البعـض.

لم يشـكل ذلـك فارقـا كبـيرا بالنسـبة للشـاب الـذي جلـس ينتظـر دوره الـذي لم يتأخـر كثـيرا حيـث خاطبـه أحـد المظليـين بصـوت حـاد كنظراتـه التـي وجّههـا نحو الشـاب:
- أنت أيها الأزرق، هيا انهض وانطلق.

كان يرتـدي قيمصـا أزرق سـماويا ولذلـك تمـت مناداتـه بـالأزرق مـن طـرف ذلـك المظـلي، نهـض الشـاب بسرعـة وانطـق جريـا أمـام شـاب آخـر تلقـى الأمـر بالانطـلاق خلفـه حتـى بلغـا البوابـات الثـلاث أيـن كان بعـض مـن يرتـدون بـدلات عسـكرية واقفـين هنـاك يراقبـون دخـول المترشـحين للبوابـة المؤديـة لميـدان التدريـب.

تفاجـأ المترشـحون عنـد دخولهـم الميـدان بضخامتـه حيـث كان حجمـه يفـوق حجـم ملعـب كبـير لكـرة القـدم ويحتـوي عـلى مرافـق مختلفـة للتدريبـات الجماعيـة والفرديـة. داخـل ميـدان التدريـب تكفّـل عـشرات الجنـود بإجـلاس المترشـحين الذين تم تقسـيمهم على شـكل كتائب صغيرة بجانب بعضها البعض.

تـمّ إجلاسـهم عـلى هيئـة جلـوس واحـدة رافعـين ركبهـم عـلى الأرض ومطبقـين بأيديهـم حولهـا بحيـث لا يسـمح لأحـد منهـم بتغيـير هيئـة جلسـته مهـما أحـسّ بالتعـب.

في ذلـك الوقـت كان هنـاك جنديـان يحمـلان الكاميرا ويصـوران عمليـة دخول وتنظيـم المترشـحين. بعـد إدخـال وتنظيـم تلـك الجمـوع الكبـيرة التـي كانـت بعـدد جمهـور فريـق كـرة قـدم صعـد بعـض الضبـاط إلى المنصـة العاليـة التـي نصبـت في منتصـف الميـدان مـن جهتـه الجنوبيـة ثـم وقفـوا يتأملـون تلـك الجمـوع الهائلـة للحظـات وهـم يتبادلـون أطـراف الحديـث لبعـض الوقـت قبـل أن يتقـدم أحدهـم باتّجـاه مكـبر الصـوت الـذي نصـب في مقدمـة المنصة.

كان أحمـر الوجـه يرتـدي نظـارة بنيـة اللـون حليـق اللحيـة ولـه شـارب كبـير، يرتـدي بدلـة بـدت كأنهـا بدلـة للـدرك الوطنـي تمتلـئ كتفـاه بالنجـوم التـي تـدلّ عـلى رتبتـه العاليـة. وقـف أمـام مكـبر الصـوت وأخـذ يتجـوّل بعينيـه بـين جمـوع الشـبان الذيـن اشرئبـت أعناقهـم إليـه ورمقـوه بأبصارهـم منتظريـن كلمتـه التـي سـيلقيها عليهـم.

بعـد جولتـه الخفيفـة بعينيـه التـي لم يفهـم الشـبان الـسرّ الكامـن وراءهـا قـام بتعديـل قبعتـه التـي يرتديهـا ثـم مسـح مسـحة خفيفـة بيـده اليمنـى عـلى شـاربه الكبـير، دق بعدهـا دقتـين عـلى مكـبر الصـوت حتـى يتأكـد أنـه غـير معطّـل لينطـق بعدهـا مخاطبـا تلـك الجمـوع الغفـيرة:

-أعيروني انتباهكم جيدا.

سكت بعدها لبضعة ثوان ليتأكد من أن الكلّ منتبه إليه في الوقت الذي كان الصمت يسود تلك الجموع التي يُسمع طنين الذبابة إن مرّت بجوارهم. استأنف بعدها قائلا:

سأذكر لكم بعض الموانع التي ستحول دون قبول من تتوفر فيه، فمن توفرت فيه إحدى هذه الموانع فعليه مغادرة الميدان حالا.

هنا اضطربت قلوب الشبان الذين كانوا يستمعون باهتمام شديد ويترقبون ما سيقول ذلك الضابط الذي شرع بعدها في ذكر تلك الموانع التي تحدث عنها:

- من لديه مستوى دراسي أقل من الأولى متوسط فعليه أن يغادر.
- من لديه وشم في أي مكان في جسده فعليه أن يغادر.
- من سبق له إجراء عملية جراحية فعليه أن يغادر.
- من لديه أي مرض فعليه أن يغادر.
- من لديه تسوّس في أسنانه فعليه أن يغادر.
- من لديه مشكلة في السمع او البصر فعليه أن يغادر.
- من يقل طوله عن متر و70 سنتيمتر فعليه أن يغادر.
- من يقل وزنه عن 55 كيلوغرام فعليه أن يغادر.
- من لديه سوابق عدلية فعليه أن يغادر.

استمر ذلك الضابط بسرد تلك المعوقات للحظات في الوقت الذي كان العشرات من الشبان يغادرون كلما سمعوا أحد المعوّقات التي تعنيهم وتتوفر فيهم.

أحسّ الفتى بالتّعب الشديد الذي أصابه فقد كان يشعر أن قدماه تتخدّران جراء وضعية الجلوس التي أجبروا عليها لكنّه تحمّل ذلك بصعوبة كبيرة فلم يكن بإمكانه تغيير هيئة جلوسه التي أمر بها، بالإضافة إلى التعب الذي أحسّ به فقد لاحظ أنّه كل بضعة لحظات يأتي أحد الجنود ليطوف بين تلك الكتائب مناديا على أحد الأسماء لينتحي به جانبا ويحدثه على انفراد أو يصطحبه معه

أحس بإحباط شديد وأدرك صعوبة المأمورية، لكنه لم يفقد الأمل فقد كان يأمل أن يحدث شيء ما يقلب الأمور لصالحه، لم تمرّ سوى لحظات حتى انقطع ذلك الأمل عندما اقترب منهم أحد الجنود الذي يبدو أنه أشفق لحالهم ثم قال بصوت حزين منخفض:
- لقد أُغلقت القائمة وتمّ تحديد قائمة المقبولين، أنصحكم بالمغادرة فورا فلا داعي لإرهاق أنفسكم من دون طائل.

عودوا إلى دياركم ما دام الوقت مازال مبكرا قبل أن تضطروا للمبيت في العراء ليلة أخرى

ثم أضاف بعد أن لاحظ الحسرة التي ملأت وجوه الشبان:

-لا تذهب أنفسكم حسرات ولا تحزنوا من أجل شيء بسيط كهذا فالله سيعوضكم وسيرزقكم ما هو خير من هذه المهنة إن شاء الله.

كانت كلمات ذلك الجندي بمثابة رصاصة الرحمة لهؤلاء الشبان الذين أخذوا ينسحبون تباعا وعلامات الأسى والحزن بادية على وجوههم بينما شكّ البعض أن ذلك كان خدعة من ذلك الجندي حتى يغادروا لتتاح له الفرصة بعد أن ينقص عدد المترشحين للتّوسط لبعض أقاربه ليتم تجنيدهم.

كان الشاب ضمن المجموعة التي قرّرت المغادرة فقد كان متأكدا أن ذلك الجندي صادق في كلامه. انطلق نحو الجهة الجنوبية الغربية باتجاة البوابة الخلفية للميدان التي تطل على أحد الطرق المؤدية إلى وسط المدينة حيث خصصت للخروج منها.

وصل البوابة والخيبة بادية على وجهه، كان الألم يقطع نفسه وهو يسير منكّس الرأس مفكرا بكلّ التعب الذي تعبه من دون جدوى.

رفع رأسه ناظرا باتجاه الطريق وإذا به يرى شخصين لم يكن يتوقع أن يراهما في ذلك المكان.

★★★★★

الفصل الرابع

الثّأر الحر

كان الشاب يسير بخطوات متثاقلة نحو الخروج من البوابة الخلفية للميدان عندما رفع رأسه ليرى صديقيه اللذين يسكنان في أحد الأحياء المجاورة لحيه بالمدينة

كانت مفاجأة شبه سارة بالنسبة له فقد وجد على الأقل من يرافقه في رحلة العودة نحو المدينة وإن لم يتحقق له ما كان يسعى إليه.

كان الشابان واقفان على حافة الطريق المحاذي للبوابة التي كانا ينظران نحوها وجفون عينيهما تكاد تطبق على بعضها من شدة الحزن والإحباط.

انضم الشاب إليهما بعد أن تبادل التحية معهما ثم وقف الثلاثة الذين كانوا متذمرين لبعض الوقت ينظرون باتجاه البوابة التي خرجوا منها وهم يشتكون حالتهم السيئة ويتمتمون بكلمات تعبّر عن مشاعرهم التي امتزجت غضبا وألما قبل أن يلتزموا الصمت وهم يحبسون الدموع في أعينهم بعد أن فقدوا الأمل وأحسوا أن لا أحد يسمع شكواهم التي كانت بلا فائدة فالضرب على الحائط ليتحول إلى باب ليس سوى مضيعة

للوقت كما يقول المثل الإنجليزي.

"الضعف في هذا العالم جريمة عقوبتها المعاناة والاضطهاد" تذكر الشاب مقولة والدته مرة أخرى فتضاعف همّه وازداد حزنه حتى أنه جاهد الدموع حتى لا تنهمر من عينيه.

بعد تلك الوقفة القصيرة في ذلك المكان انصرف الثلاثة باتجاه وسط المدينة، ومنها باتجاه المحطة للعودة إلى مدينتهم وهم يجرون أذيال الخيبة مرة أخرى.

بعد ثاني رحلة مخيبة للشاب ولصديقيه اللذين عادا بخفي حنين هما الآخران من رحلتهما إلى مدينة باتنة أقسم كل واحد منهم على عدم المحاولة من جديد، بعد أن أيقنوا أنهم لن يفلحوا مهما أعادوا المحاولة فإمكانية نجاحهم من دون وساطة تعادل إمكانية نجاة من يدخل حربا من دون سلاح.

لم يكن أمامهم خيار غير العودة والانضمام لزملائهم السابقين الذين أعياهم التنقل بين الأعمال المختلفة التي كانت كلها متشابهة شكلا ومضمونا، فعادوا للعمل في مخزن الإسمنت من جديد بعد مدة معتبرة من البطالة.

بعد أن فقد الشبان كل أمل في الحصول على منصب في الجيش لم يكن أمامهم سوى العودة لعادتهم القديمة المتمثلة في العمل نهارا في مخزن

الاسـمنت ومعاقـرة الخمـور ليـلا في الأزقـة الضيقـة التـي يسـهرون بهـا حتـى سـاعة متأخـرة .

لم يكـن الشـاب ليستسـلم بسـهولة فهـو وخلافـا لرفاقـه كان دائـم التفكـير والبحـث عـن مخـرج مـن الوضعيـة التـي كان يعيشـها فحـاول مـرارا وتكـرار الحصـول عـلى عمـل في أحـد المؤسسـات ولـو كحـارس أو بـواب لكـن مـن سـوء حظـه فحتـى تلـك المهـن صـارت تحتـاج إلى ممهـدات، حيـث كان في كل مـرة يصطـدم إمـا بالرفـض أو القبـول مقابـل رشـوة وهـو مـا كان يرفضـه رفضـا قاطعـا لتعـارض ذلـك مـع الديـن الإسـلامي والمـروءة حيـث يـأبى أن يأخـذ شـيئا لا يسـتحقه مقابـل رشـوة.

وفي أحـد الأيـام وبينـما كان يعمـل كعادتـه مـع رفاقـه في ذلـك المخـزن إذ تعـرّض لإصابـة بليغـة عـلى مسـتوى اليـد بواسـطة آلـة حـادة تسـببت لـه في قطـع الوتـر الباسـط للسـبابة نقـل عـلى إثرهـا إلى مستشـفى المدينـة عـلى جنـاح السرعـة أيـن لم يكلـف الأطبـاء أنفسـهم عنـاء إجـراء كشـوفات معمقـة للتأكـد مـن نـوع إصابتـه. اكتفـى أحـد المرضـين ببعـض الفحوصـات الروتينية ثـم طلـب منـه فتـح يـده وغلقهـا بضعـة مـرات قبـل أن يقـوم بتنظيـف الجـرح وإخاطـة الجلـد وتضميـده ليغـادر عـلى إثرهـا المستشـفى ظنـا منـه أن إصابتـه قـد عولجـت غـير أنـه اكتشـف بعـد شـفاء جرحـه أن وتـر سـبابته الباسـط مقطـوع وأنـه يتطلـب عمليـة جراحيـة لخياطتـه.

اضطـر الشـاب لإجـراء تلـك العمليـة عنـد أحـد الخواص بسـبب مماطلـة إدارة

المستشفى التي أعطته موعدا بعيدا جدا لإجراء تلك العملية له فحتى التداوي وإجراء العمليات أصبح يتطلب ممهدات ووساطات في تلك البلاد. بعد إجرائه العملية استمرت فترة العلاج والنقاهة والتدليك لما يزيد عن السنتين حتى عادت يده التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الشلل إلى حالتها الطبيعية.

كانت مثل تلك الأخطاء الطبية مألوفة جدا في كثير من مستشفيات البلاد، ولطالما ذهب المواطنون ضحية لتلك الأخطاء المتكررة والإهمال الذي أصبح متفشيا فيها دون حسيب ولا رقيب ففي أحسن الأحوال يتم معاقبة بعض الموظفين ويجعلون منهم كبش فداء للتغطية على الفساد المنتشر في ذلك القطاع .

أثناء فترة علاجه وبما أنه كان عاجزا عن العمل مع رفاقه فكّر الشاب في شيء يشغل به نفسه ويدفع به الملل عنها على أن يكون ذلك الشيء مفيدا ونافعا، لم يحتج الأمر الكثير من التفكير فقد تذكر ما كان يعرضه عليه أحد أصدقائه مرارا وتكرارا، كان كثيرا ما يعرض عليه العودة للدراسة والتسجيل والدراسة معه عن بعد في المركز الوطني للتعليم والتكوين عن بعد وإعادة بعث مشواره الدراسي من جديد لكنّ الشاب كان يرفض ذلك في كل مرة ويعتبر تلك المحاولة مجرد محاولة فاشلة لن تفضي إلى شيء فقد قُضي الأمر وحكم عليه أن يعيش على تلك الحال المزرية طوال عمره .

بعـد أن اسـتقرت تلـك الفكـرة في رأسـه وأبـت أن تبارحـه لم يفـوّت الشـاب التسـجيل في أول فرصـة أتيحـت لـه ليسـتأنف دراسـته مـن جديـد بعـد توقفه قرابـة العـشر سـنوات .

بمجـرد التحاقـه بالدراسـة مـن جديـد تغـيرت أهـداف الشـاب وطموحاتـه تمامـا فلـم يعـد هدفـه مـن الدراسـة إشـغال نفسـه أو الترويـح عنهـا كـما كان مقـررا بـل أصبـح هدفـه هـو بنـاء نفسـه مـن جديـد وتغيـير مـدار مسـتقبله عبرتحقيـق طموحاتـه التـي لطالمـا كان يطمـح إليهـا دائمـا، وكما قيـل ربّ ضارة نافعـة فقـد كانـت إصابتـه سـببا في عثـوره عـلى حـل لوضعيتـه الصعبـة التـي عـانى منهـا لعـدة سـنوات ولطالمـا بحـث عـن مخـرج منهـا. لقـد وجـد الحـلّ فعليـا بعـد رحلـة طويلـة مـن البحـث فـلا تـزال أمامـه الفرصـة لاسـتدراك مـا ضـاع منـه طيلـة السـنوات الماضيـة وبنـاء مسـتقبل دراسي مـشرق يحقـق مـن خلالـه طموحاتـه وأحلامـه.

وضـع الشـاب الدراسـة كهـدف رئيـسي لـه في الحيـاة فكـرس لهـا وقتـه وعقلـه وجهـده. كان ذراعـا لا تـكل مـن النشـاط والاجتهـاد، توقـف عـن السـهر مـع رفاقـه الذيـن أصبـح لا يلتقيهـم إلا في المخـزن للعمـل بعـد شـفائه وعودتـه للعمـل. اسـتغرب رفاقـه مـن تغـيره وتوقفـه عـن السـهر معهـم فأصبحـوا يسـخرون منـه، ويصفونـه بالواهـم الـذي يطلـب المسـتحيل إذ كيـف يسـتطيع شـاب منهمـك في العمـل طـوال اليـوم مـن بنـاء مسـتقبل دراسي جديـد وينجـح فيـما فشـل فيـه عندمـا كان في الصفـوف النظاميـة متفرغـا

للدراسة تماما. كان ذلك ضربا من الجنون ومجرد محاولة فاشلة لن تفضي إلى شيء كما كانوا يرون.

لم يكترث الشاب لسخريتهم ولم يعرها أي اهتمام فقد كان تصميمه أكبر من تهزّه رياح السخرية والاستهزاء، بل على العكس من ذلك تماما فقد كانت تلك السخرية بمثابة جرعة تحفيز وزيادة عزم له لإثبات أنه قادر على تحقيق طموحاته رغم صعوبتها. لم تكن تلك هي العقبة الوحيدة في طريق الطالب الجديد القديم فقد كان انقطاعه عن الدراسة لسنوات طويلة وما تخللها من أحداث قد محا كل ما يتعلق بالدراسة من ذاكرته لذلك كانت مهمته في غاية الصعوبة وكان عليه أن يبذل مجهودا مضاعفا للتوفيق بين العمل نهارا والدراسة ليلا ليتمكّن من النجاح في نهاية العام الدراسي.

بمرور الوقت تأقلم الشاب مع نمط حياته الجديد وأخذ يتدرّج في دراسته عاما بعد عام حتى بلغ السنة الثالثة ثانوي التي تعدّ نهاية المسار للتعليم الثانوي وبوابة التعليم الجامعي.

إنها السنة التي سيجتاز فيها امتحان شهادة البكالوريا وهي الشهادة التي يحلم كل طالب في البلاد بالحصول عليها للانتقال إلى الجامعة التي تعدّ بوابة المجد كما يراها كل الطلاب.

في تلك السنة اجتهد الشاب كما لم يجتهد من قبل، كان مستعدا للتضحية بكل شيء في سبيل الحصول على تلك الشهادة التي كان يرى أنها العقبة الوحيدة التي تحول دون التحاقه وتصنيفه مع الفئة المثقفة في المجتمع لذلك كان ينكبّ على دراسته ما إن يعود من عمله إلى ساعة متأخرة من الليل بل إنه كان في بعض الأحيان لا ينام حتى الصباح، لا يبالي بنصب ولا وصب، فقد كان تحقيق أحلامه وتغير مكانته في المجتمع وتخلصه من تلك الأعمال المُجهدة هي الغاية المثلى لديه فمن طلب العلا سهر الليالي كما يقولون.

مع نهاية تلك السنة وظهور النتائج لم تذهب مجهودات الشاب سدى فقد كان ضمن قائمة الناجحين ليحصل أخيرا على الشهادة التي ستكون بمثابة جواز سفر نحو المجد

التحق الشاب بالجامعة لينسجم في محيط جديد مختلف تماما عن المحيط الذي عاش فيه طيلة السنوات الماضية. سرعان ما اندمج في تلك الأجواء الجديدة ولم يمض وقت طويل حتى اكتسب أصدقاء جددا عوّضوه عن أصدقائه السابقين الذين لم يعد يلتقيهم ويجالسهم إلا نادرا.

كان قد اختار دراسة تخصص العلوم السياسية وكله أمل بأن يصبح شخصية سياسية كبيرة ومرموقة في البلاد بعد نجاحه في دراسته وتخرّجه أخذت طموحاته وأحلامه تكبر يوما بعد يوم وعزم على تحقيق نجاحات

كبيرة يعوض بها سنوات الفشل والضياع التي مرّ بها منذ أيام طفولته

-النجاح يبقى نجاحا والفشل يبقى فشلا سواء كان الهدف صغيرا أو كبيرا لذلك على الإنسان أن لا يسطّر أهدافا صغيرة يهدر فيها عمره ووقته بل عليه دائما السعي وراء الأهداف الكبيرة فحتى وإن فشل في تحقيقها فسيكون قد نال شرف المحاولة ولم يكتف باللهث وراء أهداف لا قيمة لها وإن نجح في تحقيقها، كان الشاب يحدث نفسه دائما بهذا الحديث وهو عازم على أن يصبح شخصية لها وزن كبير في البلاد.

بعد وقت قصير من دراسته في الجامعة أصيب الشاب بالصدمة بعد أن اكتشف حقيقة لم تكن لتخطر له على بال. اكتشف أن الصورة التي كان يتصورها عن الجامعة كانت مجرد سراب وأن كل ما كان يعتقده ويتخيله عن تلك المؤسسة كان مجرد وهم، فقد واجه فيها الكثير من الصعوبات ورأى هناك الكثير من الأمور السلبية التي لم يكن يتوقع أن يراها تماما في تلك المؤسسة.

كان ذلك سببا في ادراكه لحقيقة كونية يغفل عنها الكثير من الناس وهي أن الأهداف والطموحات التي يسطرها الإنسان ويرى فيها كل السعادة والراحة لا يمكن أن تجلب له ما يتمنى أبدا، فما إن يحقق الإنسان طموحه الذي يسعى إليه حتى يكتشف أنه لا يحقق المأمول وأنه بحاجة لتحقيق أهداف أخرى أكبر فتبدو له طموحات أخرى أكثر أهمية فيسعى وراءها

وهكذا تستمر رحلة مطاردة الطموحات والأحلام حتى نهاية العمر دون أن تشبع نفسه أو يجد السعادة التي يتمناها حتى وإن تحققت كل طموحاته فلا وجود لشيء اسمه سعادة مطلقة وتامة في هذه الحياة والقاعدة الوحيدة التي لا تتغير ولا تتبدل في هذا العالم هي "يوم لك ويوم عليك"

رغم ذلك لم يتراجع الشاب عن طموحاته وأحلامه فهي وإن كانت لن تحقق له السعادة الكاملة التي يتمناها فإنها ستساهم في تحسين ظروف حياته وتسهل من أمور معاشه وترفع من مكانته في المجتمع وتحقّق له الكثير مما يرجوه في حياته.

خلال دراسته لم يكن الشاب يهتمّ سوى بدراسته فهو على خلاف غالبية الشبان لم يسبق له أن أقام علاقة مع أية فتاة من قبل، ليس فقط لأنه عاش في معاناة ولم يكن لديه الوقت الكافي لمثل هذه العلاقات، ولا لأنه نشأ في بيئة إسلامية محافظة تمنع ثقافتها مثل تلك العلاقات غير الشرعية، بل لاقتناعه التام بأن تلك العلاقات ليست علاقات جدية وهي فقط علاقات زائفة تُتخذ كوسيلة لملء الفراغ العاطفي والهروب من الوحدة والترويح عن النفس وتقليد ما يفعله الغير فالغالبية العظمى من تلك العلاقات تنتهي بالفشل الذريع.

عـلى الرغـم مـن ذلـك فإنـه وكأي رجـل في أي مـكان وأي زمـان كان يبحـث عـن امـرأة مناسـبة بمواصفـات محـددة قصـد الـزواج بهـا وبنـاء أسرة صالحـة يقـضي معهـا بقيـة حياتـه، عـلى خـلاف أغلـب شـبان البـلاد لم يكـن الجـمال أو الغنـى أولويـة بالنسـبة لـه، فالجـمال كـما كان يـرى هـو جـمال العقـل والقلب الـذي يترجمـه حسـن الأخـلاق والأفعـال التـي تسـمو بالإنسـان وترفـع مكانتـه أمـا الغنـى فـإن غنـى النفـس وتشـبعها بالقناعـة هـو الغنـى الحقيقـي الـذي عـلى الإنسـان أن يحـرص دائماعـلى اكتسـابه.

لوقـت ليـس بالقصـير مـن دراسـته بالجامعـة لم تـثر أي مـن الفتيـات انتبـاه الشـاب الـذي اكتفـى بالتركيـز عـلى دراسـته، لكنـه بمـرور الأيـام ومـن دون أن ينتبـه اكتشـف ميلـه المسـتمر تجـاه إحـدى الفتيـات التـي كانـت تـدرس قريبـا منـه في أحـد الكليـات المجـاورة. كانـت فتـاة مهذبـة هادئـة الطبـاع عـلى قـدر كبـير مـن الأخـلاق والاحـترام غضـة الصـوت، قـاصرة الطـرف تميـل إلى العزلـة رفقـة بعـض زميلاتهـا. ازداد تعلّقـه بهـا شـيئا فشـيئا حتـى أصبـح يـرى أنهـا الفتـاة التـي لطالمـا اقتحمـت عليـه أحلامـه وتمناهـا شريكـة لـه في حياتـه، كان يـرى فيهـا الـدرب الـذي كان يسـعى لسـلوكه منـذ أمـد بعيـد. أخـذت بمجامـع قلبـه وتمكنـت مـن نفسـه فوقـع في هواهـا حتـى أصبـح يـرى أنـه لا يسـتطيع العيـش مـن دونهـا.

مـرت الأيـام ومـع ازديـاد تعلقـه بهـا يومـا بعـد يـوم نصحـه أصدقـاؤه

ومقربوه بأن يتقرب منها شيئا فشيئا ويحدثها بعد أن يتأكّد من عدم ارتباطها بغيره ثم يتقدّم لخطبتها إن هما اتّفقا قبل أن يسبقه غيره إليها. كان الشاب مترددا ومتحيرا بين إقدام وإحجام، وذلك لخشيته من جرح كبريائه وكرامته إن هي لم توافق على طلبه.

كان أكثر ما أخافه هو تغير الموازين والمعايير في مجتمعه حيث لم تعد الأخلاق ولا المروءة معيارا يحكم به على الرجال فقد أصبحت فئة ليست بالقليلة من نساء البلاد يحلمن بالزواج من رجل غني حتى وإن كان فاقدا للمروءة أو عديم الأخلاق فالأهم بالنسبة لهن هو الغنى وحالته المادية بينما كنّ يرفضن الزواج من رجل فقير مهما كان يحمل من صفات وخصال حميدة.

أصبحت المادة أولوية ومطلبا أساسيا في تعامل كثير من الناس مع بعضهم البعض في أغلب الأحيان في ذلك المجتمع الذي تغيرت فيه الكثير من المفاهيم والعادات واختفت منه الكثير من القيم الجميلة التي تميز بها الأسلاف.

-صحيح أن نساء كثيرات يعطين الأولوية للحالة المادية للرجل لكن الخير لا ينقطع أبدا من هذه الأمة وما زالت الكثيرات منهن لا يشكل العامل المادي فارقا بالنسبة إليهن وهن يفضلن صاحب الأخلاق والمروءة على غيره. قال الشاب مشجعا نفسه على المضي قدما في ذلك الطريق.

بعد تردد كبير وبإلحاح من أصدقائه تسلح بالشجاعة في يوم من الأيام وقرر مفاتحها في الموضوع لمعرفة رأيها بشأن ذلك الأمر

لم ترفض الفتاة عرضه بشكل مباشر، ولكنها كذلك لم توافق فقد كان ردّها أنها لا تفكر في الزواج في الوقت الراهن لكنها ستنظر في عرضه عندما تفكر في ذلك الأمر.

أحسّ الشاب بالإحباط بعد أن فهم أنها رفضت عرضه بطريقة غير مباشرة، فشعر بالخيبة الشديدة ليس حزنا عليها وعلى خسارتها، وإنما لأنه أحسّ أنه جرح جرحا غائرا في كبريائه الذي لطالما كان يعتز ويفتخر به أمام أصدقائه ومعارفه.

أحس بالحرج الشديد مما حدث لاسيما أنه كان مجبرا على تحمل نظرات الشفقة من البعض والشماتة من البعض الآخر.

كلتا النظرتان كانتا كالسهام المرشوقة في فؤاده فكلاهما ترتبطان بالضعف والهزيمة والانكسار وهو ما لم يكن الشاب يتحمله ويتقبله فهو ليس من ذلك النوع الذي يتقبل الهزيمة بسهولة.

لم يمض سوى وقت قصير على تلك الواقعة حتى ازداد جرحه عمقا

وألما فما هي إلا أيام حتى جاءت الأخبار أن تلك الفتاة قد تم خطبتها من طرف ابن أحد رجال الأعمال الأثرياء حيث لم تتردد في قبول عرضه بمجرد وصوله.

كانت تلك ضربة موجعة للشاب الذي لعن الفقر الذي تجرع بسببه الخيبة والهزيمة، وتمنى لو أنه بشر ليشفي غليله منه وينتقم منه انتقاما شديدا.

لم يتقبل الشاب تلك الهزيمة وفكر في الثأر لكرامته المهدورة فوجد أن أفضل حل هو خطبة امرأة أخرى لحفظ ماء وجهه والتخلص من حالة الضعف والانكسار التي أصابته. أخذ يفكر فيمن يمكن أن تكون بديلا عنها على أن يكون اختياره هذه المرة دقيقا هذه المرة حتى لا يفاجأ بالرفض مرة أخرى فهو لا يستطيع تحمل ضربة أخرى.

بعد فترة تفكير ليست بالقصيرة وجد أن أكثر من تتوفر فيها تلك الشروط هي ابنة الجيران التي توشك على التخرج من كلية العلوم الإنسانية، كان متأكدا أنها لن ترفضه لا سيما وأنها بدت دائما معجبة به وبخصاله النبيلة، هذا بالإضافة إلى المودة الكبيرة التي يكنّها له والدها الذي كان دائم المدح له والثناء عليه وهو ما زاد من تفاؤله وارتياحه على عكس المرة الأولى حيث كان مترددا ومتخوفا من الرّد.

بالنسبة له كان رفض عرضه آخر شيء يمكن أن يحدث، وهو أقرب إلى الاستحالة منه إلى الإمكان فليس هناك أي سبب وجيه يدعوها لرفضه.

قرر مفاتحتها في الموضوع وتقديم عرضه لها لمعرفة رأيها بخصوص ذلك الأمر، كانت الفتاة صريحة جدا معه وأخبرته أنها لن تستطيع القبول به وهو على هذه الحال من الفقر وأنها ستقبل به فقط إن هو حصل على عمل براتب محترم، منزل مستقل، بالإضافة إلى سيارة ومهر كالذي تطلبه كل نساء المدينة عند الزواج.

حاول الشاب إقناعها أن الثراء ليس كل شيء في هذه الحياة، وأن أثمن كنز يمكن للإنسان أن يملكه هو القناعة والرضا بما كتبه الله له، وأن الغنى لا يمكن أن يجلب السعادة والراحة فكثيرون هم أولئك الأغنياء الذين يعيشون حياة بائسة وتعيسة ويتمنون لو أنهم يصبحون أفقر الخلق مقابل الحصول ولو على جزء قليل من السعادة والراحة النفسية التي يتمتع بها الكثير من الفقراء.

أصرّت الفتاة على موقفها وتمسّكت بمطالبها مؤكدة أنها لن تتراجع عن رأيها مهما حاول إقناعها بأنها على خطأ

أصيب الشاب بخيبة كبيرة وإحباط شديد من تلك الطلبات فأنّى له أن

يأتيها بها وهو الذي يعاني الأمرين وبالكاد يستطيع توفير لقمة العيش؟. لم يجد الشاب غير الاستسلام للأمر الواقع بعد أن فشلت محاولته الثانية وأُغلقت الأبواب في وجهه مثله مثل الآلاف من الشبان المدفوعين من الأبواب في تلك البلاد لا لشيء سوى أنهم فقراء.

- ما الذي حدث في هذه البلاد؟ ولماذا يفكر الناس بهذه الطريقة ؟ هل خلت البلاد من أمثال أجدادنا الذين كانوا يزوجون بناتهم للرجال الصالحين دون النظر إلى حالتهم المادية؟ تساءل الشاب يائسا.

فشلت محاولته الثانية فشلا ذريعا ولم تزده إلا هما وحزنا فهو كما يقول المثل الشائع في البلاد "أراد أن يكحل العين فعورها" فقد حاول الثأر لكرامته بعد رفض الأولى ففاجأته الثانية بما هو أدهى و أمرّ.

- على كل لست أول من أساء تقدير الأمور فالكثير من الناس يحاولون إصلاح أخطاء قد قاموا بها فيقعون في أخطاء أكثر جسامة، قال الشاب في نفسه محاولا الرفع من معنوياته.

بالرغم من ذلك كله فإن الشاب لم يكن مخطئا في كلتا المرتين فقد كان واضحا وصادقا وتصرف برجولة ووضوح دون أن يفعل ما يسيء له ولا لسمعته.

- لا يجب عليّ أن ألوم نفسي أو أعاتبها فقد تصرفت بشهامة مع الاثنتين ولم أفعل ما يطعن في مروءتي وأخلاقي، حدّث نفسه بحزن ثم تساءل للحظات عن سبب تغير الناس بسرعة وحبهم الكبير للفخر والتباهي أمام بعضهم البعض. لم يحاول إتعاب نفسه في البحث عن جواب للسؤال ولم يعد مهتما بمعرفة الإجابة فهي بالتأكيد لن تفيده في شيء إن عرفها.

بعد أن تلقى الشاب ضربتين موجعتين في ظرف قصير أقسم بأغلظ الأيمان بأن لا يفكّر في الزواج مرة أخرى مهما كان الأمر حتى يظفر بعمل محترم ينقله من حالة الضعف إلى القوة ويكسبه مكانة مرموقة في المجتمع فلا يتجرأ أحد على الانتقاص من قيمته بعدها.

كان حصوله على ذلك العمل مسألة وقت فقط فهو قد أوشك على التخرج من دراسته التي سيتلوها بالتأكيد تحقيق الهدف الذي يطمح إلى تحقيقه بعد جهد كبير طيلة سنوات طويلة.

الفصل الخامس

تجّار الموت

بعد التخرج من الجامعة شرع الشاب في البحث عن العمل الذي شقي من أجله لسنوات طويلة وذاق خلالها كل ألوان العناء والنصب.

-الآن سيعلم الجميع من أكون وسيندم كل من استخف بي وبقدراتي من قبل.

قال ذلك وهو يتذكر أيام المعاناة التي مرّ بها من قبل لسنوات طويلة.

أخذ يشارك في الكثير من مسابقات التوظيف وطاف على العديد من الشركات والمؤسسات لكنّه كان في كل مرة يعود خائبا

لم يتم قبوله ولا في واحدة منها حيث كانت الأولوية دائما لأصحاب الوساطات في معظم مؤسسات البلاد التي انتشرت بها البيروقراطية والمحسوبية والرشوة وأشياء أخرى يعرفها ويتداولها الصغير والكبير في تلك البلاد التي أصبح من الصعوبة الحصول على عمل فيها دون ممهدات.

في كل الأماكن، في البيوت، في أماكن العمل، في المقاهي، في الحافلات ووسائل النقل الأخرى وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، الكل كان يتحدث عن

تلـك الممارسـات السـيئة المنتـشرة في أغلـب مؤسسـات البـلاد لكـن لا أحـد منهـم تحـدّث يومـا عـن أسـباب حـدوث تلـك الممارسـات ولا عـن كيفيـة إيجـاد حـلّ للتخلـص منهـا وإنهائهـا. لا أحـد منهـم بحـث عـن سـبب ذلـك الـداء والبحـث لـه عـن دواء فقـد تعـود النـاس عليهـا وأصبحـت شـيئا مألوفـا لديهـم، كل مـا كانـوا يفعلونـه هـو الشـكوى والتذمـر مـن ذلـك الوضـع فالـكل يلـوم غـيره وينـسى نفسـه وذلـك مـازاد مـن تفاقـم الأمـر أكـثر فأكـثر، فعـدم تشـخيص المـرض بطريقـة صحيحـة سـيؤدي لا محالـة إلى نتائـج كارثيـة في النهايـة.

لم يكـن هـؤلاء المتذمـرون يعلمـون أن الحـلّ بأيديهـم وأنهـم وحدهـم القـادرون عـلى القضـاء عـلى مثـل تلـك الظواهـر فلـو أنهـم اجتمعـوا واتفقـوا عـلى الإصـلاح ومحاربـة الفسـاد خـارج تلـك المؤسسـات لصلـح مـا بداخلهـا لأن العاملـين فيهـا مـا هـم إلا منهـم ومـن أبنائهـم

فالعاملـون في تلـك تلـك المؤسسـات هـم في الحقيقـة مـن أبنـاء ذلك الشـعب المتذمـر ولم يأتـوا مـن مـكان بعيـد ليتولّـوا تلـك المناصـب التـي يتولونها.

اسـتمر الشـاب في بطالتـه لسـنوات مثلـه مثـل الآلاف مـن خريجـي الجامعـات الذيـن يتخرجـون كل عـام ليلتحقـوا بكتيبـة البطالـين حتـى أصبحـت الجامعـة بمثابـة الصانـع الأول للبطالـين في البـلاد.

أحسّ بالخيبة الشديدة والندم لتضييع عدة سنوات من عمره في الدراسة جريا وراء سراب انقشع عن حقيقة مرة كان عليه تقبلها مرغما فكل تلك الأحلام والمشاريع التي رسمها وخطّط لها ذهبت أدراج الرياح وظهر الواقع المرير الذي كان مخفيا عنه.

كان ما زاد خيبته أكثر فأكثر هو ما تعرّض له في أحد المؤسسات ذات يوم حينما طُرد وسمع كلاما جارحا من طرف حارس مؤسسة رفض إدخاله للاستفسار والاحتجاج على عدم قبول ملفه الذي قدمه للحصول على وظيفة في تلك المؤسسة

كان ذلك الحارس ذا مستوى لا يتجاوز التعليم الابتدائي ومع ذلك مُنح السلطة للاستعلاء والتسلط على من هو أعلى منه مستوى مثله مثل الكثير من أصحاب المستويات المتدنية الذين تبوؤوا مناصب عليا وتسلطوا على أصحاب الكفاءة والمستوى العالي.

ذلك ما حزّ في نفس الشاب كثيرا وجعله يحس بالظلم في بلده الذي مات أجداده من أجله لكنه كان عاجزا عن إيجاد حل لمعضلته ولا لتغيير الوضع الذي يعيشه.

"لا ترض بالعيش ضعيفا في هذه الحياة فالضعف جريمة عقوبتها المعاناة والاضطهاد" مرّة أخرى تذكّر الشاب مقولة والدته التي مرّ عليها سنوات

فأحسّ بالهم أكثر فأكثر لا سيما وأنه كان عاجزا وغير قادر على فعل أي شيء لتغيير وضعه.

ضاعت أحلام حامل الشهادة العليا وذهب كلّ تعبه وتضحياته طوال تلك السنوات أدراج الرياح. تبيّن في النهاية أن تلك السنوات كانت مجرّد استنزاف للوقت والجهد لا أكثر.

مرّت الأيام بسرعة ولم تتغير حال الشاب الذي وبعد أن أنهكته البطالة وفقد كلّ أمل في الحصول على عمل محترم لم يكن أمامه سوى طريق واحد، قرّر العودة للعمل من جديد في مخزن الإسمنت مع رفاقه القدماء الجدد الذين جعلوا منه أضحوكة ومسخرة بعدما أضاع عدّة سنوات من عمره سعيا وراء أحلام زائفة بلا فائدة تذكر.

كانت مفاجأة غير متوقّعة تماما للشّاب الذي لم يكن يتصوّر أن ينتهي به الأمر بتلك الطريقة البشعة بعد أن أجهد نفسه لسنوات طويلة، وحرم نفسه الراحة ليجد نفسه يرزح في مستنقع البطالة والمعاناة من جديد بعد أن ظنّ أنّه تخلّص منهما نهائيا بعد أن أصبح ممن يطلق عليهم اسم النخبة أو الفئة المثقفة.

- لقد ضاعت كل آمالي وتحطمت كل أحلامي على يد أبناء وطني، لا عمل محترم، لا بناء مستقبل، لا زواج ولا حياة سعيدة. قال الشاب يائسا ومتذمرا من الوضع الذي يعيشه.

لم يكـن أمـام الشـاب المتذمـر سـوى العـودة إلى نمـط حياتـه القديـم مـع أصدقائـه حيـث يعملـون نهـارا ويسـهرون ليـلا في الأزقـة الضيقـة.

مـرّ الوقـت وبـدأت أخـلاق الشـاب الـذي كان يُـضرب بـه المثـل في حسـن الخلـق بالـتردي، أصبـح عصبيـا، شرس الطبـاع، معكـر المـزاج، عابـس الوجـه في أغلـب الأوقـات وكلـما سـأله أحدهـم عـن سـبب تجهمـه وعبوسـه كان يكتفـي بالقـول:

"حقرونا صديقي، حقرونا"

لم يلبـث خريـج الجامعـة بعدهـا أن أصبـح يدخـن السـيجارة بشراهـة ويتناول التبـغ مـن دون توقـف بعدمـا كان دائمـا ينهـى أصدقائـه عنهـما في السـابق ويطالبهـم بالتوقـف عنهـما.

- سـأصبح الأكـثر شرا وفسـادا في هـذه البـلاد ولـن أهتـم لأحـد بعـد اليـوم، لقـد تعرّضـت للظلـم مـن طـرف هـذا المجتمـع الـذي لطالمـا تمنيـت لـه الخـير والصـلاح وتعرّضـت للاضطهـاد في بلـدي الـذي أحبّـه أكـثر مـن نفـسي. قـال الشـاب في نفسـه بغضـب شـديد متوعـدا

لم يمـض وقـت طويـل حتـى بـدأ الشـاب يقتـدي بأصدقائـه فالصاحب سـاحب كـما قيـل ومـن يرعـى قـرب الحمـى لابـد أن يقـع فيهـا يومـا، أصبـح يتعاطـى المسـكرات والمخـدرات مـع أصدقائـه كل ليلـة لنسـيان همومـه وآلامـه حتـى أصبـح مدمنـا مثلهـم وانحـرف انحرافـا شـديدا. كان المبلـغ الـذي يحصـل عليـه

الشـبان مـن عملهـم في المخـزن غـير كاف لتلبيـة احتياجاتهـم مـما جعلهـم يمتهنـون اللصوصيـة فأصبحـوا يسـطون عـلى المنـازل والمحـلات ثـم مـا لبثـوا إلى أن تحولـوا للمتاجـرة بالمخـدرات.

اسـتمر الشـبان عـلى ذلـك الوضـع إلى غايـة إحـدى الليـالي، كانـت ليلـة مـن ليـالي الشـتاءحالكة الظـلام وشـديدة البرودة لكـن ذلـك البرد القـارس لم يكـن ليمنـع الشـبان مـن السـهر كعادتهـم في أحـد الأزقـة الضيقـة حتـى وقـت متأخـر مـن الليـل فـكلّ متعتهـم تكـون في تلـك السـهرات بعـد يـوم مـليء بالحركـة والأعـمال المجهـدة.

كانـوا يسـتهلكون المخـدرات ويشربـون الخمـور ويتبادلـون الحديـث والمـزاح وسـط ضحكاتهـم الهيسـتيرية وهـم في حالـة سـكر متقدمـة.

لم تمـرّ سـوى لحظـات وإذ بهـم يجـدون أنفسـهم محاصريـن مـن طـرف رجـال الشرطـة وكلابهـم المدرّبـة حيـث لم يـتردّدوا في القبـض عليهـم متلبسـين بجرمهـم ليتـم تقييدهـم ووضعهـم في سـيارة الشرطـة التـي انطلقـت تشـقّ أحيـاء المدينـة وهـي تحمـل صيـدا ثمينـا تـمّ اصطيـاده حديثـا.
قـضى الشّـبان تلـك الليلـة في مركـز الشرطـة قبـل أن يتـم تحويلهـم إلى أحـد السـجون في أحـد المـدن المجـاورة في انتظـار موعـد محاكمتهـم. مكـث الشـبان الخمسـة في ذلـك السـجن قرابـة الشـهر قبـل أن يـأتي يـوم محاكمتهـم حيـث تـمّ نقلهـم مكبّلـين إلى المحكمـة أيـن تكفـل أحـد المحامـين المتطوعـين بالدفـاع

عنهـم بعدمـا رفـض أهاليهـم توكيـل محامـين للدفـاع عنهـم؛ لأنهـم جلبـوا لهـم العـار وجعلوهـم في موقـف محـرج يشـعرون بالخجـل مـن تصرفاتهـم أمـام سـكان الحـي الـذي يقطنونـه.

بـدأت المحاكمـة التـي كان كل شيء فيهـا ضـد الشـبان الذيـن وجهـت لهـم تهمتـان الأولى هـي اسـتهلاك المخـدرات أمـا الثانيـة فهـي المتاجـرة بهـا.

اعترفـوا باسـتهلاك المخـدرات فيـما أنكـروا بشـدة التهمـة الثانيـة المتمثلـة في متاجرتهـم بهـا، بعـد المرافعـات طالـب محامـي الدفاع الـذي حاول اسـتعطاف القضـاة تخفيـف العقوبـة عنهـم قـدر الإمـكان ومراعـاة وضعيتهـم النفسـية والاجتماعيـة المتردّيـة ليصمـت بعدهـا كل مـن كان في قاعـة المحكمة فاسـحين المجـال للقضـاة للتشـاور فيـما بينهم حـول مدة العقوبـة التي ستسـلط عليهم.

كانـت قلـوب ال شـبّان تنبـض بقـوة وفرائصهـم ترتعـد وهـم يشـاهدون القـاضي ومـن معـه يتكلّمـون بأصـوات منخفضـة فيـما بينهـم. بعـد لحظـات قليلـة اسـتقام القـاضي ومـن معـه ثـم رفـع عينيـه ناظـرا إلى الشـبان المكبّلـين نظـرة كان واضحـا أنهـا نظـرة لا مبـالاة تخلـو مـن أيـة رحمـة أو شـفقة مـما زاد مـن رعبهـم أكـثر فأكـثر ليلتفـت بعدهـا باتجـاه الحاضريـن في تلـك القاعـة التـي سـادها سـكون مخيـف بعـد أن دقّ بمطرقتـه ثـلاث دقـات لينطـق بعدهـا بالحكـم:

-بسـبب عـدم توفـر أدلّـة كافيـة عـلى تـورط المتهمـين في المتاجـرة بالمخـدرات

فقد حكمت المحكمة بتبرئتهم من هذه التهمة لذا فإن عقوبتهم ستكون فقط بسبب استهلاكها.

أحس الشبان بقليل من الراحة وتنفسوا الصعداء لكن قلوبهم ما زالت تخفق بقوة وهم ينتظرون مصيرهم بشأن التهمة الثانية.

- بعد أن تم القبض على المتهمين متلبّسين بجريمتهم ومع توفر الأدلة التي تدينهم قررت المحكمة الحكم عليهم بالسجن لمدة ثلاث سنوات منها اثنتين نافذتين. قال القاضي بصوت هادئ كهدوء القاعة.

حكم على الشبان بالسجن لمدة ثلاث سنوات منها سنتين نافذتين بعد أن تم إثبات التهمة الأولى وتبرئتهم من الثانية ليغادر الشبان القاعة وهم مكبلين بالحديد باتجاه السجن الذي سيمكثون فيه سنتين كاملتين.

كانوا محظوظين جدا لعدم وجود دليل ملموس على متاجرتهم بالمخدرات، وبالتالي فقد نجوا من عقوبة قاسية جدا كانت ستصل لعشرين عاما في السجن.

قضى الشبان سنتين كئيبتين في ذلك السجن لكنهم لم يشعروا خلال تلك المدة بتغيير كبير في نمط حياتهم؛ لأنهم لم يحسوا باختلاف كبير عن حياتهم خارج السجن باستثناء الشاب الذي كان حزينا جدا ومهموما طوال الوقت.

لم يكـن يتوقـع أن ينتهـي بـه الأمـر بذلـك الشـكل السـيّئ والمخـزي بعدمـا اجتهـد وبـذل قصـارى جهـده لتحقيـق طموحاتـه.

فكّـر في حالـه التـي وصـل إليهـا وفي سـمعته التـي تلطخـت بـين النـاس وفي والدتـه التـي خيّـب ظنّهـا وأحرجهـا أمـام سـكان الحـي بأفعالـه المشـينة.

-سـنوات طويلـة مـن الدراسـة والتعـب كي أنتهـي إلى سـجن مظلـم! قـال متحـسّرا.

أحـسّ بالخـزي والعـار فلـم يسـتطع التحكـم في دموعـه وبـكى بشـكل لم يبـكِ مثلـه طيلـة حياته.

أخـذ يتذكـر أحلامـه ومشـاريعه التـي كان يسـطرها طيلـة سـنوات والتـي ذهبـت كلها هبـاءً وتلاشـت كـما تتـلاشى السـحب عـن كبـد السـماء ليسـتيقظ في النهايـة عـلى كابـوس مرعـب ويجـد نفسـه في زنزانـة مظلمـة.

-ليـت كل ذلـك لم يحـدث، ليـت الزمـان يعـود بنـا إلى الـوراء فنسـتدرك مـا فـات ونتجنّـب الأخطـاء التـي وقعنـا فيهـا. قـال في نفسـه يائسـا ومتحـسّرا عـلى الحـال التـي بلغهـا.

مـرت السـنتان وانتهـت فـترة العقوبـة فغـادر الشـبان السـجن ليعـودوا مـن جديـد إلى نمـط حياتهـم قبـل سـجنهم مـع عـدم وجـود أيـة بـادرة أمـل

ستغير حياتهم نحو الأفضل.

لم يكن شيء قد تغيّر بين دخولهم السجن وخروجهم منه، كل شيء كان مستقرا على حاله في تلك البلاد التي يبدو أن لا شيء سيتغير فيها إلى الأحسن على الأقل في المستقبل القريب.

على العكس من ذلك تماما فقد تسربل الشبان بالعار في حيهم الذي يقطنونه وأصبح الناس ينظرون إليهم على أنهم مجرمين وخريجي سجون لا يمكن الوثوق بهم أو مصاحبتهم، وذلك ما زاد همهم أكثر فأكثر.

وفي إحدى الليالي وأثناء سهرهم كالمعتاد في الحي وبينما كان الشبان يتجوّلون في الشبكة العنكبوتية إذ صادف أن شاهدوا بعض مقاطع الفيديو على شبكة الإنترنيت تحث الشبان المغاربة على الهجرة السرية نحو أوروبا عبر البحر حيث شاهدوا مقاطع لشبان مهاجرين يتباهون بحياة النعيم التي يعيشونها في أوروبا وينتقدون بلدانهم التي هاجروا منها ويصفونها بأقبح الأوصاف، داعين الشبان المغاربة إلى الاقتداء بهم وإعادة تجربتهم بالهجرة إلى أوروبا لتحقيق كل أحلامهم وغاياتهم في الحياة.

أسالت تلك المقاطع لعاب الشبان الذين خرجوا من خلالها بفكرة واحدة وهي أن أوروبا هي جنتهم التي تنتظر قدومهم إليها وأنها الخلاص من معاناتهم في بلدانهم، حيث سيجدون فيها بمجرد وصولهم

العمل المحترم والأجر المرتفع والمنزل الفاخر والزوجة الجميلة الغنية التي ستقلب حياتهم إلى نعيم وتسوّي وضعيتهم بالحصول على وثائق الإقامة لتتغير حياتهم ويتخلصوا نهائيا من حياة الاضطهاد والظلم والبطالة وازدواجية المعاملة التي يعيشونها في بلدانهم التي حرموا فيها من حقوقهم.

استحوذت فكرة الهجرة على اهتمام الشبان الذين يبدو مستقبلهم مجهولا في بلدهم، بدت أنها فكرة عظيمة تستحق الاهتمام والتأمل وقد يكون فيها خلاصهم من المعاناة التي يعانونها منذ سنوات.

أصبحوا بعد ذلك مدمنين على مشاهدة مثل تلك المقاطع المحفزة وسماع الأغاني الحماسية التي تذكرهم بالوضع المزري الذي يعيشونه على غرار الأغاني الشهيرة جدا التي يردّدها الشباب المغاربة كل أسبوع في مدرجات ملاعب كرة القدم وفي جلساتهم الخاصة.

" في بلادي ظلموني، لمن نشكي حالي؟ الشكوى للرب العالي"

"خليني نروح في بابور اللوح"

تشاوروا فيما بينهم لبعض الوقت قبل أن يستقروا في النهاية على قرار الهجرة ومغادرة البلاد التي عانوا فيها من الظلم والاضطهاد.

أخذ الشبّان بالاستعداد لمغامرتهم المجهولة إلى ما وراء البحر بعد أصبح

كل شيء مهيأ لذلك بيد أن مفاجأة غير منتظرة ظهرت في طريقهم.

رفض أحد رفقائهم الهجرة معهم والمغامرة في رحلة مجهولة العواقب مؤكّدا لهم أنه لن يكون معهم في مغامرتهم المحفوفة بالمخاطر. كان يرى أنه ليس مضطرا لخوض تلك التجربة فهو وإن كان يعمل في مهنة متواضعة بدخل زهيد إلا أنه يرفض فكرة ترك أهله ووطنه من أجل رحلة غير محمودة العواقب.

فوجئ الشبان وأصابتهم الدّهشة من القرار غير المتوقع لصديقهم وحاولوا جاهدين إقناعه بمرافقتهم لكنه رفض ذلك رفضا قاطعا. لم يكن منهم إلا أن اتهموه بالجبن وتوعّدوه بالندم بعدما يراهم وقد بلغوا غاياتهم وتغيّرت حياتهم نحو الأفضل وأصبحوا أثرياء. لم يؤثّر ذلك في موقف رفيقهم الذي ردّ عليهم بمقولة بسيطة تحمل في طياتها الكثير من المعاني "أفضّل تنظيف شوارع بلدي على تنظيف شوارع أوروبا"

رد عليه أحد رفاقه بنبرة ساخرة:

ولكن تنظيف شوارع أوروبا يجعلك تجني أضعافا مضاعفة عمّا تجنيه هنا.أجاب رفيقه:

أجل سيجعلك تجني أضعافا مضاعفة عمّا تجنيه هنا لكن سيسلبك كرامتك وكبريائك التي الذي تتغنى به دائما فكيف ترضى بالعمل في بلاد الغير بأعمال تراها مهينة في بلادك؟.

ثم أضاف:

ألست أنت نفسك الذي كنت دوما تنشدنا تلك الأبيات التي تتغنى بالعزة والإباء؟:

لا تسقني ماء الحياة بذلة★★★ بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم ★★★ وجهنم بالعز أطيب منزل

صمت الشاب وصمت معه الشبان الأربعة ونكّسوا رؤوسهم بعد سماعهم ذلك الكلام الذي أزعجهم فالكثير من الحقائق تسبب الإزعاج وحتى الغضب عندما تقال.

أضاف رفيقهم وقد علا صوته واحمر وجهه غضبا:

أولسنا نحن من نشتهر بشعار"النيف والخسارة"؟ كيف تغامرون بحياتكم في رحلة انتحارية من أجل الذهاب للعمل في مطعم أو في مزرعة تحت إمرة فلاح أوروبي يرى نفسه أعلى منكم منزلة ويعطيكم الأوامر؟

قال أحدهم: عن أي عزّة وكرامة تتحدث؟ نحن نعيش هنا مثل العبيد.

قال رفيقه: تقول هذا لأنّك لا تحمد الله على ما آتاك من نعم وتنظر دائما لمن هو أعلى منك متمنيا أن تكون مثله.

ثم تابع قائلا:

لنفترض أننا نعيش كالعبيد كما تقول فلعمري أن ذلك أحب إلي من أعيش ذليلا في بلاد غريبة فلا عار على الرجل يذل بين قومه لكن العار أن يذل في أرض الغريب.

قال بعدها:

أقسم برب السماوات والأرض أنه لو كانت لديكم " الفيزا" وتسافرون بطريقة شرعية ومحترمة للذهاب والبحث عن عمل محترم هناك لما ترددت لحظة واحدة في مرافقتكم، أما أن أغامر بحياتي من أجل الذهاب للعمل في تلك الأعمال الحقيرة والمطاردة من طرف الشرطة والتنقل بين مراكز الاحتجاز وتحمّل الألفاظ العنصرية ونظرات الاحتقار فذلك لن يكون أبدا. فإما أن أذهب هناك معززا مكرما وإمّا أن أبقى هنا في بلدي مهما كانت الظروف التي سأواجهها فرب أوروبا هو رب هذه البلاد، ولن ينال الإنسان في هذه الحياة أكثر من رزقه الذي كتبه الله له حتى ولو جاب كل بلدان العالم.

أجاب أحد الرفاق: تتكلم وكأنك لا ترى حال البلاد وما نعانيه فيها.

قال صديقه: بل أرى وأعي أكثر منكم جميعا، لكن هجر البلاد ليس حلا بل هو ضعف وهروب، ألا نقتدي بأجدادنا الذين عانوا أضعاف ما عانيناه وذاقوا مختلف ألوان العذاب ومع ذلك لم يهجروا البلاد ولم يتركوها لقمة سائغة للاستعمار رغم سهولة ذلك الأمر بالنسبة لهم فقد كان الكل متعاطفا معهم وكانوا سيستقبلون بالأحضان في أي بلد يقصدونه، لكنهم فضلوا البقاء في البلاد وتحدّي كل الظروف التي واجهوها حتى حققوا أهدافهم وطردوا الاستعمار.

ثم سأل رفاقه والألم يقطع نفسه:

ما الذي أصابكم يا رفاق؟ هل ظننتم أن هذه الحياة مجرد تحصيل للمنافع المادية وأن الهدف من وجودكم فيها هو فقط الحصول على لقمة العيش؟

وا أسفاه عليكم، أنتم بذلك تحطون من قيمتكم كبشر كرمكم الله وفضّلكم على بقية المخلوقات بكثير من المزايا من بينها العقل الذي وجب أن تستخدموه فيما ينفعكم وينفع مجتمعكم وليس فقط التفكير في لقمة العيش.

أضاف بعدها:

اطرحوا التقليد الأعمى واّتباع ما يفعله الأغلبية جانبا واستخدموا عقولكم لا أهواءكم فإن من اتبع هواه هوى به إلى الحضيض.

ثم قال مخاطبا الشاب:

أنت بالذات يا صديقي، أ لم تكن تحدثنا عن قوة الشخصية وعدم الاستسلام لليأس مهما واجه الإنسان من مصاعب؟

أ لم تكن دائما تردد على مسامعنا المقولة المشهورة "سنجد حلا أو سنصنع واحدا"؟.

ما الذي أصابك حتى فقدت شخصيتك واستسلمت لليأس بهذه السهولة؟.

لماذا لا تحاول الاعتماد على مواهبك الشخصية لتحقيق النجاح في وطنك

كـما كنـت تحدثنـا باسـتمرار عـن ذلـك؟
كيـف تستسـلم وأنـت المسـلم الـذي يؤمـن أن اللـه رازقـه حيـث كان إن هـو أخـذ بالأسـباب؟ .
لقـد عرفنـاك دائمـا تتحـدى الظـروف القاسـية وتواجههـا بثبـات منـذ كنـت صغـيرا فـما الـذي أصابـك هـذه المـرة ؟
أجـاب الشـاب سـاخرا : وبمـا سـتتحدى أنـت الظـروف التـي تواجههـا؟ بجيبـك الفـارغ أم بمكانتـك العاليـة في مجتمعـك؟
تدخـل أحدهـم ضاحـكا بسـخرية: ربمـا بقطـع الدنانـير التـي جناهـا مـن عملـه في مخـزن الإسـمنت.

انفجـر الشـبّان ضاحكـين دفعـة واحـدة وتمايلـوا عـلى بعضهـم البعـض مـن شـدة الضحـك بعـد سـماعهم لمـا قـال رفيقهـم.

ردّ صديقهـم بعـد أن أفسـح لهـم المجـال لإنهـاء ضحكاتهـم السـاخرة: ليـس الجيـب الممتلـئ والمكانـة المرموقـة فقـط مـن يصنعـان المجـد بـل هنـاك التـوكل عـلى اللـه والثقـة بالنفـس وحسـن التدبـير، وإعـمال الفكـر واسـتغلال الفـرص والتـصرف بحكمـة وغـير ذلـك الكثـير.
ثم أضاف:
لقـد تغـيّر العـالم وتبدلـت المفاهيـم ولم يعـد الـصراع صراع قـوة وعضـلات بـل أصبـح صراع أفـكار وعقـول فأصبحـت الغلبـة للأكـثر فكـرا وعلـما وإن كان أقـل مـالا وقـوة مـن خصمـه.

قال الشاب ضاحكا: وأيّ علم أو أفكار تملك أنت لتصنع المجد وتنجح؟

انفجر رفاقه ضحكا مستهزئين وتمايلوا على بعضهم البعض مرة أخرى من شدة الضحك،
تحكم صديقهم في نفسه وكتم الغيظ الذي يملأ صدره ثم أجاب:
ليس العلم شهادة تنالها من مؤسسة أو مدرسة بل العلم أن تعرف هدفك في الحياة والطريق الذي يوصلك إليه بعزة واحترام.

قال أحد الشبان: هذا رأيك أنت وحدك، فكل الناس في البلاد يعلمون أن علمهم ووعيهم وحسن تدبيرهم وثقافتهم لا تغني عنهم شيئا وأن البقاء للأقوى في هاته البلاد وهي في النهاية لمن غلب.

قال صديقه غاضبا: بل تم إيهامهم وإقناعهم بأنهم عاجزون وغير قادرين على فعل شيء مع أن الحقيقة عكس ذلك تماما فالمجتمع هو الأصل وهو الركيزة الأساسية للبلاد ولو صلح المجتمع وتعاون على محاربة الظواهر السلبية المنتشرة بين مختلف أطيافه وفئاته لصلح حال البلاد العباد بعز عزيز أو بذل ذليل وإذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر.

نطق أحدهم قائلا بغضب: أنت فقط تريد أن تُخذلنا عما نوينا لأنك

جبان رعديد و طري العود لا قدرة لك على مثل هذه المغامرات فابق حيث أنت ولا تقف منّا ناصحا فلا أحد يحتاج لنصائحك.

أجاب رفيقه: لا والله ما أنا بالجبان ولا بطرّي العود وأنتم خير من يعرف ذلك، ولكن من نظر في العواقب سلم من النوائب.

قال أحدهم: أ تظن أنك بخطابك الطويل هذا ستغير من آرائنا وتشجعنا على البقاء في هاته البلاد التي لم نر فيها إلا كل ما هو قبيح؟.

قال الشاب وهو يبتسم بسخرية: مشكلتنا نحن المغاربة يا أصدقائي أننا نعدّ أنفسنا ملائكة تمشي على الأرض فنحن نعتقد أننا لا نخطئ أبدا، ولا نوجّه اللوم سوى لغيرنا دون نلوم أنفسنا مهما كانت أخطاؤنا. نحن دائما نلوم حكوماتنا على ظلمها واضطهادها ولنا كل الحق في ذلك لكننا بالمقابل نبرئ أنفسنا دائما رغم أننا المسؤول الأول عن كل يحدث.
ثم أضاف:
أ لسنا نحن من نضطهد ونظلم ونسرق ونحسد ونخون بعضنا البعض؟ أ لسنا نحن من نرفض مساعدة بعضنا البعض؟ أ لسنا نحن من نحارب الناجحين والمصلحين منا؟ أ لسنا نحن من يأكل القوي منا الضعيف؟ أ لسنا نحن من يستغل بعضنا سلطته لاضطهاد غيره؟ أ لسنا نحن من نحتقر الفقير ونعظم الغني؟ أ لسنا نحن من نتعامل بالرشوة والربا فيما بيننا؟ ألسنا نحن من يأكل بعضنا أموال بعض بالباطل؟ ألسنا نحن من

ننتهك حقوق وأعراض بعضنا البعض؟ أ لسنا نحن من نقدّم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة؟ أ لسنا نحن من نؤجر عقولنا طواعية للإعلام الذي يعمل على تدمير مجتمعاتنا وقيمنا؟ قولوا لي بربكم ما القبيح الذي لم نفعله بعد فيما بيننا؟ هل سنضحك على أنفسنا ونقول أن لدينا مشكلة واحدة فقط؟ كيف نطالب بعمر بن الخطاب ليحكمنا ونحن ننهش لحوم بعضنا البعض كالذئاب الجائعة؟ أليس الأجدر بنا أن نبدأ بإصلاح أنفسنا أولا قبل غيرنا؟

ثم أردف قائلا بعد أن لاحظ النكارة في وجوه أصدقائه الذي لم يكونوا يريدون سماع ذلك الكلام:

ما رأيكم أن ننهي هذا الجدال؟ أنتم تريدون الهجرة أ ليس كذلك؟ حسنا فلتفعلوا ما بدا لكم لكني لن أكون معكم في هذه المغامرة فما كان لسليل الثوار والشهداء الأبطال أن يهين نفسه من أجل لقمة العيش التي قُدر لي أن أنالها بأي حال من الأحوال وفي أيّ مكان أكون فيه.

ثم قال وهو يشير نحو رفاقه متوعدا بغضب: لقد سالت دماء أجدادنا وضحّوا بأرواحهم من أجل هذه الأرض التي تركوها أمانة لنا وبدل أن نحفظها ونضحّي من أجلها مثلهم، ها أنتم تريدون أن تتخلوا عنها وتضيعوها من أجل بضعة دريهمات إضافية، أي فعل مخجل هذا الذي تفعلون! كيف سيذكركم التاريخ في المستقبل؟ وكيف سيذكركم أحفادكم بعد أن يعرفوا بأنكم ضيّعتم أمانة غالية مات من أجلها أجدادهم؟ .

لم يجب أحد من رفاقة واكتفوا ببعض الحركات التي تدل على توترهم

واضطرابهم كالنظر في الأرض وحكّ الرأس وطقطقة الأصابع أو إشعال سيجارة وتدخينها، بينما أضاف صاحبهم:

-إن علاقتنا بهذا الوطن ليست علاقة براغماتية مبنية على المنفعة بل هي أعمق من ذلك بكثير فالوطن هو أثمن شيء يمتلكه الإنسان في هذا الوجود، وعلاقتنا به هي كعلاقة الولد بوالده فكما أن الولد يحتاج رعاية والده ولا يستطيع العيش من دون ذلك فإن الوالد محتاج لوجود ولده وفقدانه يحوّل حياته إلى جحيم، إن الوطن يحتاج لنا كما نحتاج نحن إليه، فهل تريدون الهرب وتركه في عزّ حاجته لكم؟

أضاف قائلا:

إن هروبكم من البلاد واستسلامكم بهذه السهولة هو أكبر خدمة تقدّمونها لمن عاثوا فيها فسادا

قال بعدها:

من لهذه البلاد إن لم نكن نحن؟ من لها إن نحن هجرناها وتخلينا عنها؟

ثم استمر بعدها ولمدة طويلة في تقريعهم ولومهم بينما صمتوا ونكّسوا رؤوسهم مفكرين بما قاله رفيقهم الذي ختم قائلا:

سأختم حديثي عن هذا الموضوع بإعادة ما قلته في البداية: "أفضّل تنظيف شوارع بلدي على تنظيف شوارع أوروبا".

أصابت تلك العبارة الشاب الذي كان يجلس منكّس الرأس في الصميم

بعـد أن ذكرتـه بمقولـة اسـتوقفته في آخـر كتـاب قـرأه قبـل أيـام قليلـة.

إنهـا مقولـة لأحـد ملـوك الأندلـس لمـا حـذّره قومـه مـن الاسـتنجاد بالمرابطـين في حربـه ضـد الصليبيـين لأنهـم سيسـتولون عـلى البـلاد بعـد الانتصـار في المعركـة لكنّـه أجابهـم بعبـارة حفظهـا التاريـخ

"لأن أرعى الإبل في صحراء المغرب أحبّ إلي من أن أرعى الخنازير في أرياف أوروبا"

أحـسّ الشـاب في قـرارة نفسـه أن صديقـه محـقّ في كلامـه وأن معاناتـه في بلـده سـتكون أرحـم بكثـير مـن معاناتـه في بـلاد غريبـة

بـدا وكأن النّـدم تـسرّب إلى نفسـه، لكنـه أقنعهـا أن رحلتهـم سـتكون ناجحـة لاسـيما بعدمـا شـاهد الإصرار الشـديد في أعـين رفقائـه الثـلاث الذيـن كانـوا جـد متحمسـين لخـوض التجربـة.

انتهـى ذلـك الجـدال الـذي دار بـين الشـاب وأصدقائـه الأربعـة دون أن يتمكّن مـن إقناعهـم بصحـة وجهـة نظـره، فهـم مثـل الكثـير مـن النـاس في هـذا العـالم يعتقـدون دائمـا أن آرائهـم هـي الأصـوب وكل مـا سـواها خطـأ مهـما واجهتهـم بالحجـج والبراهـين.

بقيت عقبة واحدة أمام الشبان الذين حسموا أمرهم وقرروا هجر البلاد وهي جمع المبلغ المطلوب من طرف عصابات تهريب البشر أو تجار الموت كما يطلق عليهم ليتم تهريبهم نحو أوروبا .

اجتهد الشبان في الحصول على مبلغ الرحلة، لم تكن الطريقة التي يحصلون بها على المال مهم"ة فالغاية تبرر الوسيلة كما يقال.

العمل، السرقة، الاقتراض كلها كانت وسائل جمعوا من خلالها ما يحتاجون من مال ليقرروا بعدها وضع خطة الطريق لرحلتهم المنتظرة.

كانوا أمام ثلاث خيارات مختلفة سيختارون أحدها للانطلاق نحو الجنة التي ستنسيهم كل المتاعب التي عانوها في بلادهم منذ طفولتهم.

أولى تلك الخيارات كان الانطلاق من مدينة عنابة المجاروة لمدينتهم باتجاه جزيرة سردينيا الإيطالية

الخيار الثاني هو الانطلاق من غرب البلاد وبالضبط من ساحل مدينة عين تيموشنت باتجاه السواحل الإسبانية، أما آخر الخيارات فكان مغادرة البلاد نحو ليبيا للانطلاق منها نحو اليونان أو إيطاليا

كانت الوجهة الأقرب والأسهل هي جزيرة سردينيا الإيطالية حيث لا

تستغرق الرحلة إليها من مدينة عنابة سوى بضع ساعات لكن ذلك لم يكن ليغري الشبان الذين لم يكونوا يبحثون عن الطريق الأقرب أو الأسهل بل كان هدفهم هو أكثر الخيارات منفعة لهم.

بعد أشواط طويلة من المشاورات فيما بينهم وقع اختيارهم على الخيار الأخير وهو التنقل إلى ليبيا، ومنها إلى إيطاليا لكن ليس إلى جزيرة سردينيا بل إلى جزيرة لامبيدوزا التي تبدأ الرحلة البحرية إليها من مدينة مصراتة الواقعة شمال غرب ليبيا.

بدأت الترتيبات للرحلة وأجريت الاتصالات مع عصابة تهريب البشر الذين تم الاتفاق معهم على سعر الرحلة إلى ما وراء المتوسط.

كان الشبّان مضطرين لانتظار استخراج جوازات سفرهم التي ستوصلهم إلى الأراضي الليبية ومن ثم تبدأ رحلتهم نحو الضفة الشمالية.

كان رفيقهم هو الوحيد الذي يعلم بقرارهم أخذوا منه العهود والمواثيق بأن يكتم سرّهم عن عائلاتهم لغاية وصولهم إلى هدفهم.

اتفق الشبان على عدم إبلاغ أهاليهم بقرار هجرتهم إيهامهم أنهم مسافرون إلى الصحراء في جنوب البلاد للعمل في إحدى الشركات البترولية هناك على أن يتصلوا بهم لإخبارهم بالحقيقة عند وصولهم إلى أوروبا إن هم وصلوا أحياء.

وصل اليوم الذي اتفق فيه الشبان على الهجرة ليودعوا أهاليهم واعدين بالعودة عند أول فرصة تتاح لهم ليودّعوا بعدها المدينة التي ترعرعوا فيها وعاشوا فيها أجمل وأسوء أيام حياتهم، وهم لا يعلمون إن كانوا سيعودون إليها في يوم من الأيام أم أنهم قد ودّعوها إلى الأبد.

الفصل السادس

مقبرة المتوسط

تحرّكت السيارة باتّجاه الحدود التونسية التي سيقضي بها "الحراقة" الجدد يومين في عاصمتها قبل استئناف رحلتهم باتجاه العاصمة الليبية التي وصلوها في اليوم الثالث لمغادرة البلاد، ليتوجهوا بعدها مباشرة باتجاه مدينة مصراتة التي اتفقوا على الالتقاء فيها مع أحد أفراد عصابة تهريب البشر الذي سيأتي لاصطحابهم معه إلى حيث لا يعلمون.

بعد رحلة شاقة ومُضنية وصل الشبان الأربعة إلى المدينة ليتم الاتصال بأحد افراد العصابة المكلّفة بنقلهم إلى الضفة الأخرى، لم يمر وقت طويل من الانتظار في المكان الذي طلب منهم الانتظار فيه حتى توقفت بالقرب منهم إحدى السيارات التي يسوقها شاب يبدو في الثلاثينات من عمره، أشار إليهم بالصّعود بعد أن عرفهم لينطلقوا على الفور باتجاه خارج المدينة.

استمروا في السير قرابة الساعة من الزمن حتى وصلوا إلى إحدى المناطق الريفية غيرال بعيدة عن ساحل البحر المتوسط ليتوقفوا أخيرا قريبا من أحد المنازل الكبيرة.

كان ذلك المنزل بالتأكيد ملكا لأفراد العصابة التي تتّخذه كقاعدة انطلاق نحو البحر كما فكّر الشبان، عندما دخلوا إلى ذلك المنزل تفاجأ الشبان بأنهم لم يكونوا لوحدهم في ذلك المنزل، بل كان هناك المئات من الشبان من مختلف الجنسيات كل منهم له قصة وحكاية جعلته يغامر بحياته من أجل اجتياز البحر إلى الضفة الأخرى .

لم يكن عدد المغاربة كبيرا في ذلك المنزل، كانت الغالبية العظمى من الأفارقة القادمين من قلب افريقيا هروبا من الحروب والفقر والمجاعات والبعض من سوريا وفلسطين ومصر حيث انقلبت بهم الأحوال فخرجوا من بلدانهم يحلمون بالوصول إلى الضفة الأخرى التي انطلق منها الأوروبيون لاجئين قبل قرابة السبعين عاما خلال الحرب العالمية الثانية باتجاه بلدانهم الشرق أوسطية.

-كيف يمكن للزمن أن يتغير بأهله إلى هذه الدرجة؟ تساءل الشاب وهو يتنهد بحسرة

أضاف قائلا:

بالأمس فقط كان الأوروبيون يحلمون بالوصول إلى بلدانهم في الشرق الأوسط كلاجئين هربا من الموت وهاهو الزمن يتغير،

ليجعل من الشرق أوسطيين لاجئين يحلمون بالوصول إلى أوروبا، يا لتصاريف الزمن ..

انضمّ الشبان الأربعة إلى هؤلاء المهاجرين بعد دفعهم المبلغ المتّفق عليه ليتمّ إثرها مصادرة جوازات سفرهم وكل وثائقهم إلى حين موعد انطلاق رحلتهم.

بقي الشبان في ذلك المنزل منتظرين دورهم في الهجرة إلى الضفة الأخرى لم يكن يسمح لمن يدخله بالخروج منه لأي سبب من الأسباب، حيث كانوا يحضرون لهم الطعام والشراب وكل ما يحتاجونه ليبقوا في ذلك المنزل.

في ذلك المنزل تفاجأ الشبان الأربعة بوجود بعض المغاربة المراهقين الذين لم يتجاوزوا السادسة عشرة من أعمارهم.

كانوا لا يزالون طلابا في الثانوية يعيشون مع عائلاتهم بسلام لا ينقصهم أي شيء ولا يوجد سبب وجيه يدفعهم للمغامرة بحياتهم وسط أمواج البحر العاتية.

كانت لديهم الفرصة للبقاء في اوطانهم وبناء مستقبلهم وتحقيق طموحاتهم أو على الأقل محاولة تحقيقها لا سيما أن لا أحد يجزم بما سيواجه في المستقبل وما الذي كُتب له في هذه الحياة.

- ما الذي يدفع هؤلاء للمغامرة بحياتهم واقتحام الموت ولم تعركهم الحياة بعد؟ تساءل الشبان فيما بينهم باستغراب.

أجاب الشاب وهو يبتسم ابتسامة ساخرة تعبر عن ألم يتوقد في داخله:
أ حقا لا تعرفون سبب مغامرة هؤلاء المراهقين بحياتهم من أجل الوصول إلى الضفة الأخرى؟

- طبعا لا نعرف، هل تعرف أنت سبب مغامرتهم؟ رد أحد الشبان.
أجاب الشاب: السبب واضح ولا يحتاج الكثير من التفكير فهؤلاء المراهقين ليسوا سوى ضحية لثقافة اليأس وتقبيح كل شيء التي تمّ زرعها في محيطهم الذين يعيشون به، حيث تم إقناعهم أن نجاحم في بلادهم مستحيل وأن الحلّ الوحيد أمامهم هو الهروب منها.

كما أنّهم كذلك ضحية لرفقاء السوء الذين منوهم الأماني وزيّنوا لهم الهجرة إلى أوروبا بترويجهم لها وترديدهم المتواصل لبعض الشعارات الرّنانة على غرار مقولات
" ياكلني الحوت وما ياكلنيش الدود"، " روما ولا انتوما" وغيرها من الشّعارات المضللة التي تؤثر في أمثال هؤلاء وتلهب حماسهم. صمت بعدها للحظات مثله مثل رفاقه الذين أصابتهم الدهشة من الكلام الذي قاله حيث لم يتوقعوا أن يصدر منه مثل ذلك.
أضاف بعدها:
"الحرقة" أصبحت اليوم هي الموضة الجديدة التي يتبعها الشبان المغاربة الباحثين عن تجارب جديدة في حياتهم و أصبح الكثير منهم وخاصة فئة المراهقين يرون أن الحراقة هم أبطال زمانهم الذين لا يهابون المغامرة وأنّ

الحرقة هي مصدر العيش الوحيد في هذه الحياة، ومن دونها سيقضون بقية حياتهم في فقر وعوز ألا ترون إلى أي زمن وصلنا؟.
-عجيب أمرك يا رجل، تفعل فعلهم ثم تنتقدهم؟ تساءل أحد الشبان مندهشا شأنه شأن رفاقه.

قال الشاب: وهل ظننت أني فعلا مقتنع بفكرة الرحيل عن الوطن والمغامرة في رحلة مجهولة العواقب كهذه قد تخسر فيها حياتك؟ سأل أحدهم مستغربا: ولماذا أتيت معنا إذن؟

لم يجب الشاب شيئا بعد ونهض من مكانه غاضبا لينزوي وحيدا في أحد الزوايا وعلامات الأسى بادية على وجهه.

تعجب الشبان من ردة فعل زميلهم وتهامسوا فيما بينهم أنه يحس ببعض الندم من إقدامه على تلك المغامرة لذلك يجب عليهم إزالة تلك الوساوس من رأسه وإقناعه بأنه قام بالخيار الصحيح حتى لا يفكر في العودة وتركهم.

في ذلك المنزل مكث الشبان قرابة الشهر ينتظرون دورهم الذي تأخر حيث غادر الكثير ممن كانوا معهم بما أن تجار الموت كانوا ينقلون كل بضعة ليالي مجموعة من الشبان باتجاه البحر.

صباح يوم الخميس في الرابع عشر من أفريل عام 2012 يدخل أحد أفراد عصابة تهريب البشر إلى المنزل حاملا جوازات سفر المجموعة المقرر ترحيلها في تلك الليلة، من دون أن يتكلم أو حتى يلقي التحية نظر نظرة حادة نحو الشبان الذي وقفوا ينظرون إليه بانتباه منتظرين سماع أسماء أصحاب جوازات السفر التي يحملها بفارغ الصبر

شرع في سرد قائمة الأسماء التي استلمت جوازات سفرها وطُلب منها الاستعداد للمغادرة ليلا.

ضمّت القائمة أسماء الشبان الأربعة الذين اختلطت مشاعرهم بين الفرحة بقرب تحقيق هدفهم الذين تركوا من أجله ديارهم واهاليهم والخوف من المجهول الذي ينتظرهم في رحلة غير محمودة العواقب وسط بحر متقلّب الأحوال.

كان التوتر الواضح على وجوه الشبان يزداد كلما اقترب الليل لكنهم كانوا مصمّمين على المضي قدما في مسعاهم فقد قضي الأمر ولم يعد بالإمكان الرجوع إلى الخلف.

في حدود الساعة العاشرة ليلا وصلت بعض شاحنات نقل القمامة لتتوقف أمام المنزل حيث استدعيت المجموعة المعنية بالرحيل وأمروا بالصعود في عرباتها الخلفية، كان اختيار نقلهم في شاحنات لنقل القمامة مدروسا وذلك للتمويه، وتجنب توقيفهم في الحواجز الأمنية التي تنتشر

عـبر الطـرق المؤديـة للبحـر.

تحرّكـت تلـك الشـاحنات باتجـاه الشـواطيء واسـتمرت في المـشي لمـدة تقـارب الخمسـة وأربعـين دقيقـة قبـل أن تتوقـف متباعـدة عـن بعضهـا في إحـدى الطـرق الجبليـة التـي تعلـو الشـاطيء القريـب منهـا ليتـمّ إنـزال الراكبـين بهـدوء بعـد أن تـم إعطائهـم أوامـر محـدّدة يجـب الالتـزام بـه،ا وهـي عـدم إصـدار ضجيـج، عـدم إشـعال الأنـوار، إغـلاق الهواتـف والأجهـزة الإلكترونيـة التـي يحملونهـا حتـى لا ترصدهـم أجهـزة المراقبـة التابعـة لخفـر السـواحل الليبيـة وغيرهـا مـن الأوامـر التـي يتوجـب التقيـد بهـا.

تـم الإنـزال بسـلام ليسـلك الشـبان الذيـن يقودهـم الدليـل أحـد الطـرق الضيفـة وسـط الغابـة التـي لم تكـن كثيفـة نازلـين باتجـاه الشـاطيء الـذي اختبـؤوا في مـكان قريـب منـه منتظريـن مجـيء المركـب الـذي سـينقلهم إلى جزيـرة لامبيـدوزا.

في ذلـك المـكان اكتشـف المهاجـرون غـير الشرعيـون أن هنـاك مجموعـات أخـرى مـن المهاجريـن قـد سـبقتهم إلى ذلـك المـكان ليكونـوا رفقـاء لهـم في رحلـة المـوت، لم يعلمـوا مـن أيـن جـاؤوا ولا أيـن كانـوا يختبئـون ولم يكونـوا مهتمـين بمعرفـة ذلـك الأمـر فـكلّ مـا كان يهمهـم هـو وصـول المركـب للانطـلاق نحـو الجزيـرة الإيطاليـة.

كان التوتـر والخـوف يسـيطر عـلى المهاجريـن الذيـن كانـوا ينظـرون إلى بعضهـم البعـض تـارة وإلى أمـواج البحـر المتلاطمـة في ذلـك الظـلام الحالـك

تـارة أخـرى دون أن ينبسـوا ببنـت شـفة.

- لعـدة قـرون كان هـذا البحـر تحـت سـيطرة أجدادنـا وكانـت أرضنـا منـارة علميـة ومركـزا تجاريـا مزدهـرا وقـوة اقتصاديـة ضخمـة، وكان النـاس يهاجـرون مـن مختلـف بلـدان العـالم للعيـش فيهـا، وهـا نحـن اليـوم نخـرج هاربـين منهـا كاللصـوص، فـما الـذي تغـير حتـى يحـدث كل هـذا؟ تسـاءل الشـاب في نفسـه وهـو ينظـر بحـزن إلى الاصطـدام المتتـالي للأمـواج بالصخـور المتواجـدة بذلـك الشـاطئ

تنهـد تنهيـدة طويلـة خرجـت مـن أعـماق قلبـه وهـو يسـأل نفسـه بأسـف شـديد:

-أ ليـس مـن المعيـب أن أجدادنـا كانـوا يخرجـون بأسـطولهم المرعـب إلى هـذا البحـر لتسـيير شـؤونه وحمايـة السـفن التجاريـة وطـرد الأعـداء منـه بينـما نخـرج نحـن اليـوم كاللصـوص في قـارب حقـير بغيـة الوصـول إلى الضفـة الأخـرى بحثـا فقـط وفقـط بحثـا عـن لقمـة

العيش؟

أحـس بالعـار والخجـل وهـو يفكـر بذلـك الأمـر المعيـب تمنـى لـو أنـه لم يخلـق في ذلـك الزمـن الـذي لا عـز فيـه إلا للسـفلة.

في مـكان قريـب مـن ذلـك المـكان كان بعـض أفـراد تجّـار المـوت يجـرون آخـر الفحوصـات الروتينيـة عـلى المركـب المهـترئ الـذي سـيحمل المهاجريـن، تـم

فحص المحرك والتأكد من صلاحية جهاز تحديد المواقع (**البوصلة**) الذي سيكون دليل المهاجرين الوحيد وسط البحر المتوسط بالإضافة إلى تزويد المركب بالوقود اللازم لبلوغ السواحل الإيطالية.

بعد فترة من الانتظار وصل المركب إلى ذلك المكان ليشرع المهاجرون في الصعود على شكل طابور حيث وضع النساء والأطفال في الطابق السفلي بينما صعد الشبان على السطح حيث كان البرد شديدا جدا أين كانت درجة الحرارة تقارب الصفر درجة.

كانوا أكثر من أربع مائة راكب مكتظين على ذلك المركب الخشبي الذي يفتقد لأدنى شروط الأمان والسلامة.

أثارت حالة المركب الرعب في قلوب بعض المهاجرين الذين حاولوا النزول والعودة من حيث أتوا رافضين المغامرة، لكن ذلك سيكون في أحلامهم كما قال أحد تجار الموت الذين أجبروهم على الصعود بالقوة للمركب، وخيّروهم بين خيارين اثنين لا ثالث لها إما الصعود واقتحام البحر في ذلك المركب أو إعادتهم وبيعهم كعبيد لأفراد إحدى عصابات تجارة البشر الذين سيشترونهم ثم يطالبون بفدية كبيرة من حكومات بلدانهم مقابل تسليمهم لها.
لم يكن لدى هؤلاء الشبان خيار آخر غير الصعود فقد كانوا مهددين بمصير مجهول في كلتا الحالتين سواء على يد تجار الموت إن نزلوا أو

عـلى يـد الأمـواج المتلاطمـة في عـرض البحـر إن بقـوا عـلى ظهـر المركـب.

أخـيرا وبعـد فـترة طويلـة مـن الشـدّ والجـذب تحـرك المركـب الـذي يقـوده أحـد المهاجريـن غـير الشرعيـين الـذي تـم تدريبـه عـلى القيـادة باتجـاه عـرض البحـر وسـط هلـع الـركاب الذيـن كان بعضهـم يبـكي خوفـا مـن المجهـول الـذي ينتظرهـم، بينـما شرع بعـض الشـبان بتنـاول حبـوب مهلوسـة حتـى تتخمّـر عقولهـم ولا يشـعروا بالخـوف أثنـاء الرحلـة

أخـذ المركـب الـذي بـدا مـع ظلمـة الليـل كأنمـا يدخـل كهفـا مظلـما يتوغـل في عـرض البحـر باتجـاه الشـمال

كان مـن المقـرر أن يصـل المهاجـرون الذيـن انطلقـوا في الثانيـة صباحـا نحـو جزيـرة لامبيـدوزا بعـد خمـس وعشريـن سـاعة أو أكـثر مـن ذلـك بقليـل خاصـة وأن الطقـس كان معتـدلا والبحـر هـادئ رغـم الـبرودة الشـديدة.

كان الشـاب ورفاقـه الثـلاث جالسـين وسـط ذلـك الحشـد الكبـير عـلى ظهـر المركـب صامتـين غارقـين في تفكـير عميـق كأنمـا هـم غـير مصدقـين أنهـم أقدمـوا فعـلا عـلى تلـك المغامـرة.

أحسـوا بالحـزن والألم الشـديد ونزلـت دمـوع حـارة مـن أعينهم عندمـا تذكروا عائلاتهـم التـي قـد لا يرونهـا مـرّة أخـرى، بـل إنهـا قـد لا تعلـم عـن مصيرهـم شـيئا إن هـم لم يتجـاوزوا البحـر بسـلام حـدث لهـم أمـر سـيئ

أخذ كل منهم يسترجع ذكرياته في المدينة التي ربما يكونون قد فارقوها إلى الأبد خاصة في ظل جهلهم التام بما ينتظرهم وكيف سينتهي الأمر بهم في النهاية، فمن الممكن أن ما ينتظرهم من مجهول سيكون أشد قسوة بكثير ممّا مرّ عليهم في وطنهم الذي غادروه أملا في حياة أفضل وراء البحر.

تقدم المركب شيئا فشيئا في عرض البحر الذي بدا أكثر اتساعا من الصحراء، مرت أربع ساعات على انطلاقهم، كان الصبح قد انبلج وهم مازالوا يتوغلون نحو الشمال باتجاه الجزيرة الإيطالية.
في ذلك الوقت بدأ الطقس في التغير وبدأت الغيوم تتجمع في كبد السماء شيئا فشيئا.

أحسّ الركاب بالهلع وظهر عليهم الاضطراب خاصة عندما بدأت سرعة الرياح تزداد لتتصاعد معها الأمواج شيئا فشيئا.

لم يكن ذلك أسوء ما حصل لهم فبعد فترة وجيزة تعطل جهاز تحديد المواقع الذي كان دليلهم الوحيد وسط غابة الأمواج المترامية الأطراف فوقعوا في ورطة كبيرة وسط ذلك البحر الواسع.
بدأ الشك يتسرب إلى قلوب المهاجرين الذين لم يعودوا على علم بالمكان الذي يتجهون إليه فتملكهم الرعب و الخوف أكثر فأكثر.

حـاول سـائق المركـب الاعتـماد عـلى ذكائـه وذلـك بـأن قـرر السـير في نفـس الاتجـاه نحـو الشـمال دون الانحـراف عنـه يمينـا أو شـمالا؛ لأنهـم حتـما سـيصلون إلى أحـد السـواحل الأوروبيـة.

وافقـه الـركاب عـلى اقتراحـه عـلى مضـض؛ لأنهـم لم يجـدوا اقتراحـا أفضـل يحـل معضلتهـم

كان تقدمهـم بطيئـا بعـد أن اضطـر سـائق المركـب لتخفيـض السرعـة خشـية الانقـلاب وسـط تلـك الأمـواج الهائلـة التـي كانـت تـزداد تصاعـدا كلّـما مـر الوقـت.

كان المركـب يضـج بصـوت بـكاء بعـض المهاجريـن بمـن في ذلـك النسـاء والأطفـال الذيـن كانـوا في الأسـفل في الوقـت الـذي كان البعـض الآخـر يرفعون معنوياتهـم مُؤكديـن لهـم أنهـم سـيصلون بعـد وقت قصـير إلى أحد السـواحل الأوروبيـة. مـع اسـتمرار تقـدم المركـب وعـدم ظهـور اليابسـة دب الرعـب في قلـوب الجميـع حتـى أولئـك الذيـن كانـوا يرفعـون معنويـات رفقائهـم منـذ وقـت قريـب فقـد بـدا وكأنهـم ضاعـوا في قلـب البحـر الأبيـض المتوسـط.

كانـوا يلتفتـون في كل الجهـات فـلا يـرون إلا الميـاه مـن كل جانـب والسـماء مـن فوقهـا.

كانـوا يخشـون أن ينفـذ وقـود المركـب قبـل وصولـه إلى أحـد السـواحل فيعلقـوا في قلـب البحـر فتكـون نهايتهـم محتمـة.

لم يسـتطيعوا فعـل شيء غـير دعـاء اللـه لينقذهـم مـن ذلـك المـأزق العويـص الـذي وقعـوا فيه.

كانـت كل فئـة تدعـوا اللـه بطريقتهـا فبينـما نـادى المسـلمون ربهـم ليعينهـم تـضرع المسـيحيون إلى المسـيح ليحميهـم وينقذهـم في الوقـت الـذي تـضرع الملحـدون وهـم يبكـون للإلـه الـذي لطالمـا اعتقـدوا أنـه غـير موجـود فكـما قيـل :"لا يوجـد ملحـدون في الخنـادق" ففـي وقـت الخـوف و الخطـر يختفـي كل اسـتكبار مـن النفـس و تتغلـب فطـرة الإيمـان عـلى كل جحـود .

اسـتمر الحـال عـلى مـا هـو عليـه قرابـة الثلاثـين دقيقة قبـل أن تحـدث الطامة الكـبرى والكارثـة التـي لم يتوقعهـا أحـد، ففـي ذلـك الموقـف العصيـب وفي أشـد حاجتهـم للخـروج بسرعـة مـن قلـب البحريتعطـل محـرك المركـب فجـأة ليتوقـف وسـط تلـك الأمـواج التـي أخـذت تجرفـه إلى وجهـة غـير معلومـة وسـط بـكاء ودعـوات كل مـن كان عـلى ظهـره.
حـاول بعـض الشـبان إصلاحـه لينطلـق في العمـل مـن جديـد لكـن كل محاولاتهـم بـاءت بالفشـل

انقطع رجاءهم في النجاة وبدأ كل فرد من المهاجرين يفكر في الطريقة التي سيموت بها في ذلك البحر الهائل الاتساع

لم يستسلم قائد المركب ومعه بعض الشبان الآخرين بما فيهم الشاب ورفاقه الثلاث لا سيما بعدما شاهدوا الهلع الشديد الذي أصاب الركاب بما فيهم النساء والأطفال في الأسفل وحاولوا يائسين إعادة تشغيل المحرك لكن دون جدوى.

بعد أن انقطعت كل السبل في خروجهم من قلب البحر ويئسوا من تحرك المركب ثانية سيجربون آخر الطرق لمحاولة إنقاذ أنفسهم، سيتصلون برقم الطوارئ الذي زوّدهم به تجار الموت قبل انطلاقهم ويرسلون نداء استغاثة عسى أن يتم إنقاذهم على يد إحدى سفن الإنقاذ التابعة للمنظمات غير الحكومية المتعودة على الطواف في المياه الدولية وإنقاذ المهاجرين القادمين من الضفة الجنوبية ومن ثم إيصالهم إلى السواحل الإيطالية أو على يد إحدى سفن خفر السواحل الليبية الذين سيعيدونهم إلى الأراضي الليبية.

لم يكن يهمهم من يأتي أولا، فالأهم هو أن يتمّ إنقاذهم من الموت غرقا في ذلك البحر المرعب .كان المركب الذي جرفته الأمواج قد انحرف نحو الشمال الشرقي تجاه جزيرة مالطا في المياه الدولية دون أن يعلم ركابه بالمكان الذين يتواجدون فيه ولا المكان الذي يتوجهون إليه.

وصل نداء الاستغاثة الذي أطلقه المركب العالق في قلب البحر الأبيض المتوسط . كانت أجهزة الرادار التابعة لخفر السوحل الليبية أول من التقط نداء الاستغاثة ليتمّ الاتصال على الفور بإحدى السفن التابعة لهم التي يطلق عليها اسم "كفاح"

طالبين منهم التوجه نحو المركب لإنقاذ المهاجرين وإعادتهم إلى الأراضي الليبية بعد أن تم تزويدهم بإحداثية المكان الذي يتواجد فيه، في نفس ذلك الوقت كان النداء قد وصل إلى سفينتي

SEA WATCH و TOPAZ RESPONDER، التابعتين للمنظمات غير الحكومية فتحركتا فور تلقيهما لنداء الاستغاثة باتجاه المركب العالق. انطلقت السفن الثلاثة في سباق ضد الزمن محاولين الوصول للمهاجرين قبل فوات الأوان

كانت كل سفينة منهم تبعد بعشرات الأميال عن مكان تواجد المركب وذلك ما جعل مهمة إنقاذ المهاجرين محل شك كبير. كانت سفينة SEA WATCH

الألمانية أكثرهم قربا من المركب المستغيث لكنها كانت بعيدة بما يكفي لهلاك الركاب قبل وصولها فقد كانت على بعد ثلاثين ميلا منهم تقريبا، مما يعني أنها لن تصل إليهم قبل أكثر من أربع ساعات على الأقل ومع حالة البحر المضطربة فإن السير سيكون أبطأ وهذا يعني أن المدة ستزيد. بدا أن نسبة نجاتهم وسط تلك الأمواج المتلاطمة قد أصبحت

شبه معدومة وأن نسبة غرقهم أعلى بكثير.

في تلك اللحظة ظهرت بارقة أمل جديدة قد تكون مخرجا لأولئك المهاجرين من محنتهم وتخرجهم من أزمتهم، كانت سفينة أكواريوس "AQUARIUS"

التابعة لمنظمة أطباء بلا حدود التي تبعد عن المركب بحوالي ساعتين فقط قد تلقّت اتصالا من مركز التنسيق والقيادة المركزية في روما يفيد بأن مركبا مستغيثا بالمياه الدولية يحتاج تدخلا عاجلا لإنقاذ ركابه الذين يوشكون على الغرق لتتحرك الباخرة فورا نحو المكان الذي حدد لها. على ظهر المركب المنجرف كان المهاجرون مذعورين يلتفتون في كل الاتجاهات لعل إحدى السفن تظهر من إحدى الجهات لتنقذهم لكن من سوء حظهم لا أثر لتلك البواخر.

كان الوضع يزداد تأزما كل ما مرّ الوقت حيث بدأ الماء باجتياح المركب الذي بدأ في الاهتزاز والتمايل وسط صراخ المهاجرين الذين كانوا في حالة فوضى واضطراب شديدين.

كانوا يتدافعون ويصطدمون ببعضهم البعض فيتساقطون في البحر من على ظهر المركب الذي كان يصعد وينزل على الأمواج، في ذلك الوقت بدأ بعض الشبان ينزعون الملابس الثقيلة في محاولة يائسة للنجاة عبر السباحة. كان بعضهم يبكي ويصيح طالبا المغفرة من ربه والسماح من

أمهاتهم وآبائهم الذين لن يروهم من جديد

-يا ربي اغفر لي ويا أمي سامحيني، كانت تلك هي العبارات الأخيرة التي رددها كثير من أولئك الشبان والدموع تنهمر من أعينهم في لحظاتهم الأخيرة قبل مغادرة هذه الدنيا إلى الأبد.

لم يعودوا يحسون بالبرد الذي كان شديدا جدا فقد أنساهم الخوف ومواجهة الموت الإحساس به تماما.

مر الكثير من الوقت ولم تصل أي من السفن التي تلقت نداء الاستغاثة، لقد قضي الأمر وعرف المهاجرون أن مصيرهم سيكون الغرق. بدأ العد العكسي لاختفاء المركب من على سطح الماء فلم تعد سوى مسألة وقت حتى يتحول البحر المتوسط إلى مقبرة لهؤلاء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وعائلاتهم طمعا في حياة أفضل وراء ذلك البحر الذي لا يفرق بين مركب صغير يحمل مهاجرين فقراء فروا من الاضطهاد والظلم وبين باخرة ضخمة تحمل كبار الشخصيات وأغنياءهم.

في تلك اللحظة خطرت في بال الشاب الذي كان مع رفقائه الثلاثة ملتصقين بمقدمة المركب فكرة مجنونة في محاولة أخيرة للنجاة، أخذ يزحف نحو الطابق السفلي للمركب الذي كانت تغمره المياه ويملؤه الصراخ والبكاء ليختفي فيه للحظات قبل أن يخرج وهو يحمل حبلا جلبه من أسفل

المركب، بمجرد صعوده من الأسفل صعق الشاب وأصيب بالانهيار بعد أن اكتشف بأن رفقائه الثلاثة قد اختفوا من على ظهر المركب.

سقط الثلاثة والتهمهم البحر رفقة أكثر من نصف الركاب الذين كانوا يتصايحون وهم يصارعون الغرق وسط الأمواج. لم يطل الشاب التفكير فيما حدث لرفقائه بعد أن قضي الأمر وأصبحوا في عداد المفقودين فكل ما فكر فيه في تلك اللحظة هو إنقاذ نفسه من الغرق.

أخذ يزحف باتجاه وسط المركب الذي بدأ يمتلئ بالماء ثم اختار أحد الأخشاب السميكة التي انخلعت عن القارب بفعل الاصطدام المتكرر بالأمواج وشرع بربط جسده على تلك الخشبة.

كانت تلك هي الحيلة الوحيدة التي ستبقيه عائما على سطح الماء إن هو لم يستطع الاستمرار متمسكا بها أو انفلتت من بين يديه، كان الماء باردا جدا وقريبا من التجمد لدرجة أن دموعه نزلت على خديه من شدة البرد والخوف الذي يملأ قلبه.

لم تمض سوى بضعة دقائق حتى صعد القارب بمن فيه فوق أحد الأمواج العالية ليهبط بقوة بشكل شبه عمودي في الماء دون أن يظهر ثانية، لقد غرق وأخذ معه كل من كان على متنه إلى قاع البحر مودعين هذه الدنيا إلى غير رجعة.

كان الشاب متمسكا بقوة بتلك الخشبة التي تتقاذفها الأمواج من كل جانب، انخفضت حرارة جسمه بشكل كبير بفعل برودة الماء الصاعقة وأصبح قريبا من الموت من شدة البرد والخوف. لم يجد ما يخفف عنه ذلك الألم الفضيعو الهلع الشديد الذي أصابه سوى الصراخ بأعلى صوته، صرخ صرخات طويلة وعالية خرجت من أعماق قلبه وكيانه بلغ مداها عشرات الأميال في ذلك البحر الهائج ثم رفع رأسه إلى السماء ودعا ربه دعوة مكروب تعاظمت عليه الخطوب قبل ان تنهار قواه ويغمى عليه وسط تلك الأمواج المتلاحقة التي أخذت تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال دون أن يحس بشيء بعد أن غاب عن الوعي.

بعد أقل من ساعتين بقليل من غرق المركب وصلت سفينة أكواريوس "AQUARIUS"
إلى المكان وعرفوا بمجرد اقترابهم أن وصولهم كان متأخرا وأن الكارثة قد حلت بالقارب ومن عليه

كان المشهد مؤثرا جدا ومؤلما، عشرات الجثث تسبح فوق الماء إلى جانب حقائبهم التي تحمل أغراضهم ولباسهم الذي حملوه معهم للعبور به إلى الضفة الأخرى واستعماله لكن البحر حجزهم وحجز ما حملوه معهم.

وقف فريق السفينة ينظر بحزن إلى هؤلاء التعساءالذين قضوا في الوقت

الـذي كانـت السـفن الثـلاث الأخـرى مـا زالـت تتقـدم نحـو مـكان الفاجعـة. تـم إطـلاق قـوارب النجـاة لالتقـاط الجثـث والبحـث عمـن يمكـن أن يكـون مـازال عـلى قيـد الحيـاة.

أخـذ بعـض مـن كان عـلى تلـك القـوارب ينـادون عـبر مكـبر الصـوت لعـل أحدهـم يجيـب ولكـن دون جـدوى فقـد غـادرت أرواح تلـك الجثـث الطافيـة عـلى المـاء أجسـادها التـي أثقلـت كاهلهـا أتعـاب الحيـاة وهمومهـا.

كان رجـال الإنقـاذ يجوبـون بقواربهـم ويقلبـون جثـث الغرقـى عندمـا انتبـه أحدهـم إلى وجـود جثـة تطفـو مـن بعيـد عـلى ظهـر خشـبة عائمـة عـلى المـاء فأسرعـوا باتجاهها ليتفاجـؤوا بالحبـل الـذي يحيـط بتلـك الجثـة عـلى الخشـبة.

لم يصـدّق رجـال الإنقـاذ مـا تـراه أعينهـم ونظـروا إلى بعضهـم البعـض باسـتغراب قبـل أن يتـم رفـع الخشـبة والجثـة التـي فوقهـا إلى القـارب ليقومـوا بفحـص سريـع لتلـك الجثـة التـي اكتشـفوا أن قلبهـا مـازال ينبـض مـما جعلهـم يبـاشرون تقديـم الإسـعافات الأوليـة قبـل أن يتـمّ قطـع الحبـل مـن عـلى بـدن ذلـك المهاجـر البائـس وحملـه إلى السـفينة لتشـخيص حالتـه التـي كانـت حرجـة جـدا ووفاتـه في أي لحظـة جـد محتملـة لا سـيما وأن الـبرد قـد أضر بجسـمه كثـيرا أثنـاء صراعـه المريـر مـع الأمـواج.

اندهش طاقم السفينة من الحيلة التي دبرّها والتي كانت السبب الوحيد لبقائه عائما على سطح الماء لغاية وصولهم إليه وأشاد الجميع بذكائه الذي قد ينقذ حياته وإن كان الاحتمال يبدو مستبعدا جدا.

بعد إسعافه أوليا وجب نقله إلى أحد المستشفيات في أقرب وقت ممكن، سيستغرق الكثير من الوقت لو نقل بواسطة السفينة لذا اتصل طاقم السفينة بأحد الطوافات التي حضرت بعد وقت قصير لتنقل الضحية إلى مستشفى جزيرة لامبيدوزا لتوفير الرعاية الصحية له ومحاولة إنقاذ حياته.

في يوم الجمعة الخامس عشر من أفريل عام 2012 انتهت رحلة المهاجرين المشؤومة بأسوء سيناريو يمكن أن يحدث على الإطلاق.

لم يخرج بقلب ينبض من البحر المتوسط سوى الشاب الذي قد يلحق برفاقه ويفارق الحياة في أية لحظة.

هلك في تلك الرحلة أكثر من أربعة مائة مهاجر من مختلف الجنسيات منهم الكثير من النساء والأطفال.

أكثر من ثلاثة مائة منهم اختفت جثثهم في قاع البحر المتوسط الذي أصبح مقبرة لهم دفنوا فيها بعيدا عن أهاليهم وديارهم ودفنت معهم

أحلامهـم وطموحاتهـم التـي حملوهـا معهـم مـن بلدانهـم إلى الأبـد.

الفصل السابع

مافيا الندرونغيتا

في مستشفى لامبيدوزا كان الشاب يصارع الموت في غرفة العناية المركزة، اجتهد الأطباء كثيرا في إنقاذ حياته التي كانت على المحك خاصة بسبب البرودة الشديدة التي تعرض لها جسمه لمدة طويلة في ذلك البحر الذي يقترب من التجمد.

في النهاية لم تذهب مجهوداتهم سدى فقد بدأت حالته في الاستقرار شيئا فشيئا إلى أن تجاوز مرحلة الخطر واستقرت حالته نهائيا.

بقي الشاب في المستشفى حتى شفي من إصاباته تماما واستعاد عافيته ليتم نقله فور مغادرته المستشفى إلى أحد مراكز الاحتجاز في الجزيرة قبل أن يتم نقله بواسطة الطائرة إلى أحد مراكز احتجاز المهاجرين غير الشرعيين في إحدى المدن الواقعة في شمال مقاطعة كالابريا .

في ذلك المركز التقى الشاب بأحد الشبان التونسيين الذي سبق وأن عرفهم في منزل تجار الموتفي ليبيا.

كان الشاب التونسي قد قطع البحر قبله ووصل الأراضي الإيطالية التي مكث بها لثلاثة أشهر قبل أن يتم القبض عليه فيها ويتم اقتياده إلى مركز الاحتجاز في تلك المنطقة في انتظار البت في قضيته ومن معه إما بإعادتهم إلى بلدانهم أو إطلاقهم.

أصبح ذلك الشاب رفيقه الجديد بعد أن فقد رفقاء دربه الثلاثة الذين تحولوا إلى وجبة شهية لحيتان البحر في قلب البحر المتوسط. كان المركز يغص بالمهاجرين غير الشرعيين من مختلف الجنسيات جاؤوا من أماكن مختلفة. في كل ليلة كانت مجموعة من هؤلاء المهاجرين يفرون خوفا من إعادتهم إلى بلدانهم عبر القفز من السور الخارجي للمركز الأمر الذي دعا الرفيقين الجديدين إلى التفكير بأن يفعلوا مثلهم.

كان الشاب مترددا ولا يعرف كيف يفعل، فهو من جهة يرغب في العودة إلى بلده بعد أن فقد الرغبة في المواصلة إثر كل الأحداث التي مرت به، خاصة فقدانه لأصدقائه الثلاثة الذين خرج معهم، ومن جهة أخرى لم يكن يعرف كيف سيقابل عائلات رفقائه الثلاثة الذين التهمهم البحر وكيف سيجيبهم عندما يسألونه عنهم وعن مصيرهم.

-بأي وجه سأقابل عائلات الضحايا؟ كيف سأجيبهم إن سألوني عنهم وعن مصيرهم؟ هل سأخبرهم بحقيقة ما حدث لهم أم أخفي الأمر عنهم؟ كيف سينظر الناس لي إن عدت من دونهم؟ تساءل الشاب في نفسه متحيرا.

غـرق في حـيرة كبـيرة واضطربـت أفـكاره ولم يعـد قـادرا عـلى اتخـاذ القـرار الصحيـح.

أخـذ يفكـر في حـل لمعضلتـه لعـدة أيـام متتاليـة دون أن يهتـدي للقـرار الأمثـل، كان الخيـار صعبـا جـدا بالنسـبة لـه. بعـد مـدة طويلـة مـن التفكـير اختـار في النهايـة خيـار الهـرب ومواصلـة رحلتـه نحـو المجهـول وذلـك لأنـه لم يجـرؤ عـلى العـودة وحيـدا إلى مدينتـه مـن دون أصدقائـه ورفقـاء دربـه الذيـن خرجـوا معـه منهـا.

قـرر الشـابان الهـرب إذن، لم يكـن لهـما مـكان محـدد يذهبـان إليـه لكنهـما أجـلا التفكـير في هـذا الأمرلحـين هروبهـما.

بعـد أن عزمـا أمرهـما واتفقـا عـلى الهـرب ظـلا يتحيّنـان الفرصـة المناسـبة لتنفيـذ مـا عزمـا عليـه حتـى أتـت الليلـة التـي رأيـا أنهـا مناسـبة للهـرب. في السـاعة الواحـدة صباحـا تحـرّك الشـابان اللـذان تسـللا وراء الشـاليه ثـم تقدمـا زحفـا باتجـاه أحـد الأماكـن البعيـدة بعـض الـشيء عـن مركـزي الحراسـة المحاذيـين للسـور الخارجـي للمركـز.

تقدمـا شـيئا فشـيئا باتجـاه السـور، تبـدو مهمتهـما في غايـة الصعوبـة وهنـاك احتـمال كبـير أن ينتبـه أحـد الحارسـين إليهـما ويوقفهـما. كانـت مجازفـة كبيرة قـد لا يخرجـان منهـا أحيـاء، لكـن ذلـك لم يكـن ليجعلهـما يتراجعـان عـمّا

نويا على فعله. أخذا يزحفان بحذر باتجاه الجنوب متجهين نحو السور الخارجي، ولكن مفاجأة غير سارة كانت بانتظارهما فقبل وصولهما إلى السور بحوالي عشرين مترا انتبه أحد الحارسين إليهما ليصيح بهما مطالبا إياهما بالتوقف وإلا فإنه سيطلق النار عليهما.

بمجرد أن عرف الشابان أن أمرهما قد كشف حتى نهضا وانطلقا بسرعة البرق باتجاه السور الذي وثبا عليه كالنمرين وتسلقاه غير مبالين بالتحذيرات المتكررة للحارس بإطلاق النار عليهما فقد اتفقا مسبقا على أن لا يتوقفا إن كشف أمرهما حتى وإن قتلوهما.

ما إن قفزا خارج المركز حتى ركضا هاربين كما يركض المجانين لا سيما بعد سماعهما لصفارة الإنذار وهي تدوي المركز، لم يتوقفا عن الركض حتى توغلا في الغابة القريبة من المركز وعرفا أنهما قد نجيا وأصبحا في مأمن.

في تلك الغابة جلس الشابان ليلتقطا أنفاسهما لبعض الوقت دون أن يعلما إلى أين يجب أن يتوجها ولا إلى أين يذهبان. لم يكن بإمكانهما العودة إلى الوراء لأنهما بذلك سيعودان باتجاه المركز والمدينة وهكذا سيتم القبض عليهما ثانية لذا وبعد أن تشاورا لبعض الوقت اتفقا على المسير نحو الشمال علّهما يصادفان إحدى الطرق المؤدية إلى إحدى المدن.

مشيا في تلك الغابة الموحشة التي لا يسمع فيها سوى صوت الوحوش تنبعث من بعيد حتى بلغا إحدى الطرق الجبلية الضيقة المتجهة نحو الشمال، كانت تلك الطريق مخصصة لسيارات حراس الغابات على ما يبدو.
- لابد أن هذه الطريق تؤدي نحو مكان ما. قال الشاب التونسي.
أخذ الشابان في تتبع ذلك الطريق الجبلي الذي لا يعلمان من أين يبدأ ولا إلى أين ينتهي؟

استمرا بالمشي والرعب يتملك قلوبهما من الأصوات المنبعثة من تلك الغابة إلى أن بلغا أحد الوديان الذي ما إن اقتربا منه حتى هالتهما وأطارت قلبيهما رعبا أصوات وحوش تندفع منه.

لم يرد الشابان المغامرة بالاقتراب أكثر من ذلك الوادي وقررا من فورهما العودة من حيث أتيا.

عاد الشابان أدراجهما عبر الطريق الجبلي وهما مرعوبان ثم قررا الانعطاف نحو الغرب بالموازاة مع الوادي الذي تركوه وراءهما؛ لأنه وبلا شك يصل إلى أحد المناطق الآهلة أو على الأقل إلى أحد الأنهار.

مشيا في تلك الغابة قرابة الساعتين، كان الصباح قد طلع وهما في تلك الغابة الموحشة التي تبدو لا نهائية. كان الجوع والتعب والخوف والحزن قد بلغ منهما مبلغا كبيرا ومع ذلك لم يتوقفا عن المشي حتى وصلا إلى تلة صعدا عليها لعلهما يريان إحدى المدن أو الطرق من بعيد.

لم تظهر لهما سوى سلاسل الجبال المتلاحقة من كل الجهات، أصيبا بالإحباط وكانت معنوياتهما في الحضيض، قررا الجلوس للراحة لبعض الوقت قبل استئناف رحلتهما الغابية.

تمدد الشاب الذي كان منهارا على الأرض بينما جلس رفيقه التونسي قريبا منه على إحدى الصخور.

أخذ الشاب يتأمل السماء ويراقب السحب التي تتجمع في كبدها

-لا فرق بين سماء بلدنا وأرضها وسماء هذه البلاد وأرضها وعلى ما يبدو فإنه لن يكون هناك فرق بين الحياة في هذا البلد أو ذاك فمن كتب له العناء فإنه سيلحق به في أي أرض تقله وتحت أي سماء تظله.

قال الشاب في نفسه ثم أطلق تنهيدة طويلة استفاق على إثرها من تحديث نفسه.

بعد ان ارتاح الشابان لبعض الوقت نهضا مكلمين رحلتهما الغابية التي لم يكونا يعلمان كيف ستكون نهايتها ولا ما الذي سيحدث لهما خلالها؟

بينما هما يمشيان في تلك المسالك الغابية إذ بهما يسمعان صوتا جعلهما يتجمدان في مكانهما دون حراك وهما ينظران تارة إلى بعضهما وتارة إلى

المكان الذي انبعث منه الصوت.

لم يكن الصوت هذه المرة صوت أحد وحوش الغابة بل كان صوت قطار ينبعث من وراء جبل من جهة الشمال الغربي للغابة، لم يصدق الشابان نفسيهما وقفزا من الفرح بعد أن عاد الأمل لهما من جديد وعرفا أن بإمكانهما الخروج من تلك الغابة الموحشة، كل ما عليهما فعله للنجاة هو الوصول إلى السكة الحديدية التي ستقودهما حتما إلى إحدى المدن أو المحطات

لم يترددا بعدها في التوجه نحو ذلك الجبل فقد قررا أن يتوجها نحو مصدر الصوت دون أن يحيدا عنه يمينا أو شمالا مهما كانت الصعوبات التي سيواجهانها في ذلك الجبل فالوصول إلى سكة القطار يعني بالضرورة وصولهم إلى إحدى المدن وبالتالي النجاة من الموت جوعا وعطشا في تلك الغابة الموحشة.

استمرا في المشي لساعات طويلة في ذلك الجبل الموحش وهما مرعوبان حتى تجاوزاه لتظهر لهما السكة الحديدية التي تعبا كثيرا حتى وصلا إليها.

عند الوصول إليها سقط الشابان وتمددا إلى جانبها وهما لا يصدقان أنهما خرجا من كابوس تلك الغابة الموحشة.

بعد فترة من الراحة في ذلك المكان قررا التوجه نحو الشمال واتباع

السكة الحديدية حتى يبلغا إحدى المحطات أو إحدى المدن.
مشيا قرابة الأربع ساعات وسط الجبال والحقول دون أن يعلما المكان الذي يتجهان إليه إلى أن لاحت لهما من بعيد إحدى المحطات التي وصلاها وهما منهاران من التعب.

عند وصولهما إلى المحطة كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساءً نظرا في لوحة المحطة فإذا أوّل قطار يصل بعد ثلاث ساعات يتوجه إلى جزيرة صقلية

لم يكن هدفهما التوجه إلى تلك الجزيرة فقد كانا يرغبان بالذهاب إما إلى روما أو ميلانو أو نابولي ومن ثم يقرران خطوتهما التالية إما البقاء في إحدى تلك المدن أو إكمال رحلتهما باتجاه إحدى دول الاوروبية الأخرى لكن ذلك سيتطلب ذلك منهما الانتظار حتى اليوم الموالي الذي سيصل فيه القطار لهذا فقد قررا الذهاب والبحث عن عمل هناك في الجزيرة التي كانت ملكا لأجدادهم الفينيقيين والمسلمين في يوم من الأيام

-لن نخسر شيئا إن ذهبنا هناك وجرّبنا حظنا فقد يحالفنا الحظ ونحصل على عمل مناسب هناك.

قال الشاب التونسي.

اشـتريا التذاكـر ثـم جلسـا ينتظـران وصـول القطـار والتعـب يهدّهـما هـدّا لدرجـة أنهـما ناما جالسـين عـلى مقاعـد الانتظـار ولم يوقظهـما إلا ضجيـج القطـار وهـو يحـل بالمحطـة.

بـدأت رحلـة جديـدة في مسـيرتهما نحـو الحيـاة الكريمـة التـي يحلـمان بهـا وهجـرا بلديهـما مـن أجلهـا، كانـا يأمـلان أن يجـدا فيهـا مـا يسرهـما وينهـي معاناتهـما الطويلـة في تلـك الجزيـرة الواسـعة الأرجـاء.

في جزيـرة صقليـة التـي وصلهـا الشـابان وكلهـما أمـل في الحصـول عـلى عمـل محـترم أخـذا يتنقـلان بـين مدنهـا وقراهـا الواحـدة تلـو الأخـرى ولكـن دون جـدوى.

العمـل الوحيـد المتوفـر في تلـك الجزيـرة هـو الفلاحـة ولا شيء غـير ذلـك. لم يكن لدى الشابين خيار آخر غير العمل في تلك المهنة.

في مقاطعـة راجـوزا انطلـق الشـابان بالعمـل في مزارعهـا وحقولهـا التـي كان العمـل فيهـا مجهـدا جـدا وشـاقا، كانـا يعمـلان رفقـة الكثـير مـن المهاجريـن رجـالا ونسـاءً مـن جنسـيات مختلفـة في تلـك المزرعـة منـذ الصبـاح حتـى المسـاء وفي الليـل يـأوون إلى بيـت قديـم لا يليـق إلا بالعبيـد.

أثنـاء عملـه في تلـك المـزارع تذكـر الشـاب مقولـة صديقـه الـذي رفـض الرحيل معهـم: "أفضـل تنظيـف شـوارع بلـدي عـلى تنظيـف شـوارع أوروبـا"، فـأدرك

أنـه فعـلا كان محقـا فيـما قالـه مـما زاد مـن همـه وشـعر بالنّـدم الشـديد عـلى مغادرتـه البـلاد لكـن وقـت النـدم كان قـد فـات ولم يكـن بإمكانـه أن يفعـل شـيئا.

-هـل مـن أجـل هـذا أغامـر بحيـاتي وأهجـر بلـدي وأضحـي بأهـلي؟ هـل هـذه هـي الحيـاة الكريمـة التـي كنـت أحلـم بهـا؟ هـل هـذا هـو المجـد الـذي كنـت أعـد بـه نفـسي؟ أمـا كان لي أن أرضى بمـا كنـت عليـه؟ تسـاءل الشـاب في نفسـه متألمـا وهـو يدافـع الدمـوع التـي توشـك عـلى الانهـمار مـن عينيـه.

تحمّـل الشـابان العمـل في تلـك المـزارع لبضعـة أيـام عـلى مضـض لكـن سرعان مـا بـدأ صبرهـما ينفـذ وبـدآ يفكّـران في الانسـحاب والرحيـل مـن الجزيـرة لاسـيما بعـد أن عرفـا بالممارسـات الـلا أخلاقيـة والـلا إنسـانية التـي يمارسـها صاحـب المزرعـة تجـاه النسـاء الرومانيـات اللـواتي يعملـن معهـما في تلـك المـزارع.

كان صاحـب المزرعـة يعامـل النسـاء العامـلات لديـه كالجـواري ويجبرهـن عـلى الانصيـاع لأوامـره الدنيئـة وتلبيـة رغباتـه الحيوانيـة ومـن ترفـض منهـن الاسـتجابة لمطالبـه يكـون مصيرهـا الطـرد مـن العمـل.

كان مـا أدهـش الشـابين وأصابهـما بالذهـول أن ذلـك يحـدث برضـا أزواج أولئـك النسـوة الذيـن كانـوا يقبلـون بذلـك الأمـر خشـية طردهـم مـن العمـل.

لم يصدق الشابان أنه يوجد رجل على وجه الأرض يرضى بذلك الأمر الذي أبى الدخول والاستقرار في عقليهما فقد بدا لهما كأنه حلم وليست حقيقة. ربما لأن ذلك من المستحيل أن يحدث في ثقافتهما الشرقية التي تقدّس الشرف وتقدّمه على كل شيء فالرجال الشرقيون يفضلون الموت ألف مرة على أن يقترب أحد من زوجاتهم مهما كانت الأسباب والظروف.

كانت الظروف السيئة التي صادفتهم هناك بالإضافة إلى المعاملة المشينة التي تلاقيها أولئك النسوة هناك والتي صدمت الشابين أكثر ما جعلهما يقرران التوقف عن العمل والرحيل عن الجزيرة بأكملها بعد أن كرها صاحب المزرعة والعمل في تلك المنطقة بأكملها.

بعد أن تشاورا بشأن خطوتهما التالية قرّرا العودة إلى مقاطعة كالابريا التي لا تبعد كثيرا عن جزيرة صقلية في أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية حيث سيلتحقان بآلاف المهاجرين الذين يعملون في الحقول والمزارع هناك.

بدأ الشابان العمل في تلك الأراضي الزراعية التي تملكها وتسيطر عليها مافيا "الندرونغيتا"، مثل الكثير من ملاك المزارع هناك.

كان عناصر الندرونغيتا يستغلون المهاجرين ويتخذون منهم مطية لجني الأموال والأرباح من تلك المزارع .

كغيرهما من المهاجرين كان الشابان يعملان في تلك المزارع لمدة عشر ساعات يوميا مقابل عشرين يورو فقط. في كل صباح يتم نقلهم بالشاحنات نحو تلك المزارع للعمل فيها حتى المساء، لم تكن حالتهم تختلف كثيرا عن حال العبيد، الفارق الوحيد أن المهاجرين يصبحون أحرارا خارج ساعات العمل.

كانوا يعملون تحت إمرة من يسمى بالكابوراني وهو رب العمل الذي كان يقتطع خمسة بالمائة من أجر كل عامل كما يفرض عليهم ضريبة على الإقامة والنقل.

عمل الشابان في تلك المزارع قرابة الشهر في تلك المزارع قبل أن يقرّرا التوقف عن العمل ومغادرة المنطقة تماما بعد أن سئما ذلك الوضع المزري الذي يعيشانه.

-فلتذهب هذه الأعمال الحقيرة إلى الجحيم، لن أبقى هنا يوما آخر. قال الشاب متذمرا من العمل في تلك الحقول ووافق ذلك هوى صديقه الذي كان أكثر تذمرا منه.

لم يكن ذلك ما هاجرا وتجشما الأخطار من أجله، ولذلك لم يكونا راضيين تماما على وضعيتهما. كانا يطمحان لما هو أفضل من ذلك، لذلك كان عليهما البحث عن ذلك الأفضل في مكان آخر كما فكّرا.

قررا أن تكون الوجهة القادمة خارج إيطاليا تماما حيث اتفق الشابان على قطع الحدود والدخول للأراضي الفرنسية وبالضبط إلى العاصمة باريس التي تغصّ بالمهاجرين المغاربة، وفرص العمل فيها أكبر بكثير من البقاء في إيطاليا ليودّعا الجنوب الإيطالي الذي كان ذكرى سيئة بالنسبة لهما في رحلة جديدة باتجاه الشمال أين توقفا في مدينة نابولي التي بقيا يتجولان فيها لعدة أيام قبل أن يستأنفا رحلتهما باتجاه مدينة تورينو القريبة من الحدود الفرنسية.

في مدينة تورينو غير البعيدة كثيرا عن الحدود الفرنسية مكث الشابان لبضعة أيام يتباحثان الطريقة التي سيعبران بها الحدود دون أن يقبض عليهما من طرف شرطة الحدود.

كانت الطريقة الأمثل حسب ما أخبرهما به أحد سكان المدينة هي استقلال أحد سيارات الأجرة التي تعوّد أصحابها على إدخال المهاجرين من حين لآخر أثناء تبديل فرق التفتيش مقابل أجر معلوم.

عمل الشابان بنصيحة ذلك الرجل واتّفقا مع أحد سائقي الأجرة على نقلهما للأراضي الفرنسية لتنطلق السيارة حاملة الشابين الذين كانا

خائفين جدا فالقبض عليهما سيفشل كل مخططاتهما ويعيدهما إلى نقطة الصفر.

بحلول الوقت المحدد وأثناء قيام فرق التفتيش بتبديل عناصرها انطلق السائق الذي كان محترفا في مثل تلك المهمات لتعبر السيارة الحدود بسلام وتنطلق دون توقف تجاه مدينة ليون التي ستكون محطة عبور نحو العاصمة الفرنسية.

أخيرا وبعد طول عناء أحس الشابان أنهما حققا حلمهما ووصلا إلى المكان الذي سيعيشان فيه حياة أفضل.

العقبة الوحيدة أمامهما أثناء رحلتهم التي ستكون بالقطار نحو العاصمة باريس هو احتمال صعود فرق التفتيش إليه وبالتالي اكتشاف أمرهما لكنهما وجدا الحل لهذه المعضلة وذلك بالاختباء في دورة المياه أثناء كل عملية تفتيش.

في النهاية نجح الشابان في الوصول أخيرا إلى مكان أحلامهما بعد رحلة طويلة استمرت لأكثر من سنة كاملة لقيا فيها الاهوال وتجشّما فيها الأخطار، وكان الموت في أكثر من مرة أقرب إليهما من الحياة.

بمجرد نزول الشابين داخل المحطة حتى انطلقا والسعادة تغمرهما نحو

البوابة للخروج غير أنه قد لفت انتباههما تجمع بعض الأشخاص حول رجل وامرأة كانا يجلسان مطأطئي الرأس على كراسي الانتظار في الجهة الشمالية للمحطة.

اقترب الشابان منهما ليعرفا سبب تجمع الناس حولهم،ا خاصة أنه قد جلب انتباههما لباس المرأة التي كانت ترتدي لباسا إسلاميا شرقيا.

عندما وصل الشابان إلى حيث الرجل والمرأة اندهشا عندما اكتشفا أن المرأة كانت تبكي بحرقة ومن دون توقف إلى جانب الرجل الذي بدا كأنه زوجها، كان ذاك الرجل يجلس منكسا رأسه والدموع تهبط على خديه بصمت.

أثار ذلك الموقف المؤثر شجون الشابين الذين سألا عن سبب بكائهما وإن كانا بحاجة للمساعدة.

-من يكون هذان؟ ولماذا هما على هذه الحال؟ سأل أحدهما

أجاب أحد الرجال الذي كان يقف قريبا منهما:

- الأفضل أن لا تعرفا جواب سؤالكما فلن تتمكنا فعل أي شيء لهما.

- ماذا تقصد؟ لمَ تقول هذا؟ سأل الشاب التونسي الذي كان مستغربا من جواب ذلك الرجل.

- هذان الزوجان هما مهاجران سوريان قادمان من السويد، لقد تمّ

انتـزاع ولديهـما منهـما هنـاك وسـلموهما لعائـلات أخـرى مجهولـة بدعـوى أنهـما لم يعتنيـا بهـما ويسـيئان تربيتهـما.

قال الرجل

-مـا هـذا العـار؟ كيـف يحـدث أمـر معيـب كهـذا؟ أيـن هـي المواثيـق الدوليـة ومنظـمات حقـوق الإنسـان التـي يتشـدق بهـا الإعـلام؟ هـل هـذه هـي الـدول التـي تدعـي العـدل والديمقراطيـة؟ قـال الشـاب بغضـب شـديد وقبـل أن ينتهـي مـن كلامـه تسـاءل الشـاب التونـسي: وإلى أيـن سـيذهبان الآن؟

- لا أدري وربمـا حتـى هـما لا يعلـمان إلى أيـن يتجهـان؟ أجـاب الرجـل وهـو ينـصرف مبتعـدا غـير مبـال بهـما تمامـا

لم يجـد الشـابان مـا يفعـلان واكتفيـا بالصمـت والنظـر بإشـفاق للزوجـين الباكيـين اللذيـن انتزعـت منهـما الشرطـة السـويدية ابنتهـما البالغـة مـن العمـر سـنة واحـدة وولدهـما ذي السـت سـنوات عنـوة.

ورغـم أن الولـد حـاول الهـرب منهـم رافضـا مفارقـة والديـه إلا إنهـم اقتـادوه بالقـوة لتسـليمه إلى أحـد العائـلات بحجـة واهيـة وهـي أنهـما يسـيئان معاملتهـما وتربيتهـما.

لم يتحمـل الشـابان ذلـك المنظـر المـؤلم وانسـحبا مـن المحطـة والحـزن يمـلأ

وجهيهما بعدما عرفا أنهما عاجزان عن فعل شيء حيال ذلك لينطلقا نحو الخارج، وقد تحولت فرحتهما بالوصول إلى باريس إلى حزن وألم .

في العاصمة الفرنسية بدأ الشابان حياة جديدة، أول ما فعلاه بعد وصولهما هو الشروع في البحث عن سكن وعمل، كان كل منهما قد اقتنع أن الصعب قد مر وأن ما هو قادم سيكون أسهل بكثير غير أنهما اصطدما بالأمر الواقع والحقيقة التي كانت مخفية عنهما بعد اطلاعهما على واقع الحياة في باريس.
اكتشفا أن كل ما صُوّر لهم كان مجرد أوهام وبيع للأحلام. كان عليهما أن يجتهدا ويعانيا لتحصيل لقمة عيشهما وتقديم أوراق اعتمادهما في المجتمع الجديد الذي انضما إليه، فإما أن تكد وتكسب لتعيش وإما أن تموت جوعا دون أن يبالي بك أو يشفق عليك أحد.

لم يكن ذلك أسوء ما واجههم في بداياتهم في العاصمة الفرنسية، فالمشكلة الأكبر التي واجهتهم هي عدم تمكنهم من إيجاد مكان يبيتون فيه، فهما لا يملكان ما يكفي من المال لكراء منزل يأويهما، لذا فقد اضطرا ولعدة شهور للمبيت ليلا في العراء تحت أحد الجسور وهم يفترشون الكرطون رفقة بعض المهاجرين الآخرين. تحمل الشابان ذلك الوضع وكلهما أمل أن حالهما سيتغير مع مرور الوقت وتوالي الأيام.

قبل مجيئهما كان الشابان يظنان أن الحصول على عمل هناك سيكون

يسيرا لكنهما تفاجآ بعكس ذلك تماما لمّا فشلا في إيجاد ذلك العمل لمدة معتبرة، كان أكثر ما فاجأهما هو اصطدامهما بشيء لم يكونا يتصوران وجوده في تلك البلاد، اصطدما بشيء كانا يعتقدان أنهما تخلصا منه نهائيا بعد أن غادرا بلديهما. كان الحصول على عمل هناك يتطلب وساطة وضامنا وذلك أن الكثير من أرباب العمل كانوا يخشون تشغيل من لا يملكون الوثائق، ومن لا يعرفون شيئا عن خلفياتهم وطباعهم تجنبا للمتاعب مع القوانين وإثارة القلاقل داخل أماكن العمل.

-يا للعجب، حتى هنا يجب أن تكون لديك "المعريفة"، قال الشاب وهو محبط .

مر بعض الوقت وحصلا على بعض الأعمال المؤقتة في بعض المحلات والشركات، حاولا بعدها الاستثمار في المال القليل الذي جمعاه باستثماره في التجارة على بعض الأرصفة رفقة بعض المهاجرين الآخرين، لكنهما كانا مطاردين بشكل دائم من الشرطة التي كانت إما تطردهما أو تصادر السلع التي بحوزتهما مما جعلهما يحسان بالتعب والاحباط فقررا التوقف عن ذلك العمل الذي كان سلسلة لا تنتهي من الكر والفر بينهم وبين الشرطة.

أخذا بعدها في التقلب بين البطالة والتنقل هنا وهناك بين الأعمال البسيطة التي يستنكف المواطنون الفرنسيون من العمل فيها و لا يعمل بها إلا الفقراء والمهاجرون.

بعد مرور مدة من الزمن وبمساعدة أحد المهاجرين تمكنا من كراء منزل صغير مكون من غرفة واحدة بالاشتراك مع ثلاثة مهاجرين مغاربة قادمين من مدينة وجدة المغربية. كان ذلك هو الحل في ظل غلاء الكراء في العاصمة الفرنسية لكن ذلك لم يحسن من أوضاعهم كثيرا ولم يرق إلى مستوى طموحاتهم مما جعل الإحباط يتسرب إلى نفوسهم بعد أن ذهبت أحلامهم أدراج الرياح فلا هم حصلوا على العمل المحترم الذي يحلمون به، ولا التقوا المرأة الجميلة الغنية التي ستساعدهم على الحصول على الوثائق ولا حتى اندمجوا في المجتمع الفرنسي فقد كانوا غير مرغوب بهم من قبل فئة كبيرة منه خاصة مع ظهور بعض الدعوات العنصرية المتطرفة التي تدعو لطرد المهاجرين من البلدان الأوروبية.

أصابهم ذلك الوضع بخيبة أمل شديدة وهم الذين تركوا أوطانهم وعائلاتهم بحثا عن حياة أفضل، فإذا بهم يصدمون ويكتشفون أن حياة الغربة لا تختلف كثيرا عن الحياة في بلدانهم فمعاناتهم لم تنته كما كانوا يأملون وينتظرون، بل ازداد وضعهم تفاقما أكثر من ذي قبل، فحياة الغربة قد أفقدتهم الكثير من الأشياء التي كانوا يحظون بها في بلدانهم، فقد أفقدتهم دفء العائلة والكثير من المظاهر الجميلة التي كانوا يرونها في بلادهم.

ففي بلاد الغربة لا تضامن مع الفقراء والمحتاجين في المناسبات والأعياد ولا مطاعم للرحمة في رمضان ولا جمعيات دينية لتزويج الشبان الفقراء

ولا نخـوة في إغاثـة المسـتضعفين إن تعرضـوا للاعتـداء ولا غيرهـا مـن القيـم الجميلـة التـي كانـوا يرونهـا في بلدانهـم. كل تلـك القيـم والمظاهـر الجميلـة خسرهـا الشـبان في ذلـك المجتمـع المـادي النفعـي الـذي لا يعـترف سـوى بمـن ينتـج أكـثر.

مـرّت ثـلاث سـنوات عـلى وصـول الشـبّان إلى العاصمـة الفرنسـية ولم يتغـير شيء في وضعيتهـم ولم يكـن يبـدو أنـه سـيتغير قريبـا، مـما جعلهـم يفكـرون في العـودة إلى بلدانهـم لكنهـم كانـوا مترددين لعلمهـم بالأوضـاع الصعبـة والمعانـاة التـي تنتظرهـم هنـاك، بالإضافـة إلى خوفهـم مـن سـخرية النـاس منهـم بعـد فشـلهم في مسـعاهم الـذي ضحّـوا بأرواحهـم مـن أجلـه.

كان الشـاب هـو مـن يثنيهـم عن عزمهـم العـودة لبلدانهم في كل مـرة يفكرون فيهـا بذلـك رغـم أنـه كان أشـدهم ندمـا ورغبـة في العـودة إلى وطنـه، وذلـك لأنـه لم يكـن قـادرا عـلى العـودة وحيـدا إلى مدينتـه مـن دون رفقائـه الثلاثـة الذيـن رافقـوه عنـد خروجـه منهـا ليلقـوا حتفهـم غرقـا في البحـر وذلـك مـا كان يشـعره بـالألم أكـثر فأكـثر.

-هـل هـذا مـا سـافرنا مـن أجلـه؟ هـل هذا مـا ضحينـا بحياتنـا من أجلـه؟ أين هـي تلـك الجنـة التـي كنـا نسـمع عنها قبـل مجيئنـا؟ أين تلـك الأحـلام الوردية التـي كنـا نسـمع عنهـا؟ هـل هـذه هـي أوروبـا التـي يمـوت النـاس في سـبيل الوصـول إليهـا؟ كانـت تلك الأسـئلة تـتردد باسـتمرار في مخيلة الشـاب المحبط.

كان ألمه يزداد كلما تذكر والدته العجوز التي تركها وحيدة في ذلك الحي الفقير الذي كان يقطنه، هناك ليس لديها من يشد أزرها سوى جارتها التي كان قد أوصاها بها خيرا قبل مغادرته البلاد، تلك الجارة الطيبة التي كانت دائما تحن عليهما وتتفقد أحوالهما مذ كان طفلا صغيرا.

كانت قد وعدته بأن تكون إلى جانب والدته في كل الظروف، لكنها كانت قد طلبت منه قبل رحيله ألّا يعود إلّا وقد صنع المجد وحقّق الأهداف التي سافر من أجلها لرفع رأس والدته التي عانت لسنوات طويلة في سبيل تنشئته وتعليمه والسهر على راحته.

عادت به الذكريات وأخذ يتذكر الأيام التي مرّت لمّا كانت والدته تكد وتجهد نفسها من أجل أن توفّر له ما يحتاج.

أحس بالقهر وتملكه الندم ولام نفسه كثيرا على تركها وحيدة في ذلك الحي الفقير.

أخذ يتمالك نفسه حتى لا تنزل الدموع من عينيه بعدما قطّع الألم قلبه ثم إنه حاول التماس العذر لنفسه التي همس لها محاولا خداعها وإقناعها بأنه لم يخطئ:

-لقد كانت والدتي أحد أهم الاسباب التي هاجرت من أجلها، فقد كنت دائما أتمنى أن أجعلها تحيا حياة كريمة ولم أدّخر جهدا في تحقيق تلك الأمنية لكن يبدو أنني رجل مشؤوم وأني سأعيش في الشقاء طوال حياتي.

في إحدى الحدائق العامة التي اعتاد الشبان الخمسة على ارتيادها كل مساء بعد الانتهاء من أعمالهم ظهر أحد الرجال القادمين من الشرق الأوسط. كانوا قد تعرفوا عليه في أحد الأيام عن طريق الصدفة المحضة في تلك الحديقة.

بدأ ذلك الرجل الذي يعمل في إحدى المؤسسات الطبية في العاصمة الفرنسية يتقرّب من الشبان يوما بعد آخر

فهم الشبان فيما بعد أن سبب تقرب ذلك الرجل منهم هو أنه كان يشفق عليهم من الوضعية الصعبة التي يعيشونها وأنه يرغب في مساعدتهم للتخلص من تلك الوضعية. أصبح يجالسهم كل مساء ثم أصبح يزودهم بالمال كلما احتاجوا حتى كسب قلوبهم وأصبحوا يرون فيه كل الصفات الحميدة كالجود والشهامة والعطف وغيرها.

بعد أن أصبح ذلك الرجل من المقربين منهم أصبح الشبان يثقون به ثقة عمياء ويأخذون رأيه في كل شيء.

كان أحيانا يرافقهم للتنزه في العطل الأسبوعية ويدفع كل شيء من جيبه رافضا أن يدفوا هم مليما واحدا.

وذات مساء هادئ جميل وبينما جالسون في تلك الحديقة كعادتهم لاحظ الرجل الحالة النفسية السيئة التي كان عليها الشبان. فهم أن سبب ذلك هو حالتهم الصعبة التي يعيشونها خاصة وأنهم تركوا بلدانهم وأهلهم منذ سنوات من دون أن تتغير حالتهم إلى الأحسن.

-من المؤسف أن يحدث ذلك لكم. قال الرجل بصوت حزين

ثم أضاف بعدها:

أنتم لا تستحقون ما يحدث معكم فمثلكم يستحق حياة أفضل، وأن يكون لكم هدف معين في هذه الحياة، وليس فقط العيش من أجل تحصيل لقمة العيش والعمل في أعمال بسيطة خاصة وأنكم من خريجي الجامعات ولديكم ثقافة لا بأس به.

-وما الذي يفيد في هذا؟ أجاب أحد الشبان

ثم أضاف:

-لقد قدر لنا أن نعيش على هذه الحال ولن يتغير أي شيء قريبا وستستمر معاناتنا في هذا المجتمع الذي لن يتقبلنا وسنظل منبوذين فيه ينظر لنا الناس كمجرد مهاجرين غير شرعيين دخلاء على مجتمعهم ومواطنين أجانب من الدرجة الثانية.

صمت قليلا ثم واصل قائلا:

-حتى وإن فكرنا في العودة إلى بلداننا فلن تتحسن حالنا وسنعود إلى نفس المعاناة التي كنا نعيشها قبل هجرتنا بل أنها ستزداد سوءا وسنصح محل سخرية وتهكم من الجميع بعدما هاجرنا لسنوات لتحسين حياتنا المعيشية لكننا عدنا خائبين في وضع أسوء من الذي هاجرنا فيه.

أحسّ الشبان الذين كانوا يستمعون بانتباه بإحباط شديد وأخذوا يفكرون بكلام رفيقهم ويتخبّطون باحثين بعقولهم المشوشة عن حلّ لمعضلتهم دون أن يجدوه بعد أن قلّبوا الأمر من كل وجه

بعد لحظات من البحث والتفكير خرجوا كلهم بنتيجة واحدة وهي أنّ مشكلتهم لا حل لها وأنهم سيقضون بقية أعمارهم على تلك الحال.

بعد أن صمت للحظات ابتسم الرجل ابتسامة عريضة مؤكدا لهم أن عليهم أن لا يحزنوا ولا يقلقوا تماما حيال هذا الأمر؛ لأن لديه حلا لإخراجهم من تلك الوضعية الصعبة التي يعيشونها بل إنه سيجعل حياتهم تنقلب رأسا على عقب وسينتقلون من حياة الفقر والذل إلى حياة الغنى والعزّ.

- صحيح أنكم قد فشلتم بهجرتكم إلى هذا البلد لكن ليس بالضرورة أن تفشلوا إن أنتم سافرتم إلى بلد آخر. قال الرجل مبتسما.

نظـر الشـبان إلى بعضهـم باسـتغراب بعـد أن عجـزوا عـن فهـم كلام الرجـل الـذي ابتسـم ابتسـامة أخـرى لم يفهـم الشـبان معناهـا.

استأنف قائلا:

- هنـاك مجموعـة مـن الرجـال الصالحـين يريـدون بنـاء دولـة في الـشرق الأوسـط تكـون مبنيـة عـلى العـدل والحـق ونـصرة المظلومـين ومحاربـة الطغـاة والظالمـين فـإن أنتـم انضممتـم إلى تلـك الجماعـة فسـتتغير حياتكـم تغيـرا جذريـا وسـتحصلون عـلى أحـد أمريـن عظيمـين إمـا أن تعيشـوا أغنيـاء وسـادة وتحيـون حيـاة مثاليـة لا ينقصكـم شيء في تلـك البـلاد وإمـا أن تموتـوا شـهداء في سـبيل نـصرة الحـق والعـدل.

فاجـأ ذلـك العـرض غـير المتوقـع الشـبان الذيـن لم يخطـر ببالهـم أن يعـرض عليهـم عـرض كهـذا في يـوم مـن الأيـام. لم يكونـوا يريـدون التـسرع في الـرد عـلى مقـترح الرجـل، وطلبـوا مهلـة للتفكـير في ذلـك العـرض الـذي أسـال لعابهـم وبعـث الشـك في نفوسـهم في نفـس الوقـت.

عندمـا عـادوا إلى المنـزل تشـاور الشـبان فيـما بينهـم لوقـت طويـل حـول مقـترح الرجـل ليقتنعـوا في النهايـة أنهـم أمـام فرصـة عظيمـة قـد لا تتكـرر مـرة أخـرى وأنهـم سـيتخلصون مـن حيـاة الفقـر والمعانـاة التـي لازمتهـم طـوال حياتهـم فإمـا أن يعيشـوا أسـيادا أو يمـوتـوا أبطـالا.

-سنعوض كل ما فانتا من قبل وسننتقم لكل سنوات الألم والقهر الذي مررنا بها قال أحد الشبان محفّزا رفاقه على الموافقة على عرض الرجل.

بعد تفكير طويل قرر الشبان الموافقة على مقترح الرجل بعد أن أسال عرضه المغري لعابهم، فمثل تلك العروض قد تأتي مرة واحدة في العمر وتضييعها قد يجعلهم يندمون طوال حياتهم.

بعد موافقة الشبان لم تمر سوى بضعة أيام حتى طلب منهم الرجل التجهز والاستعداد للسفر نحو الشرق الأوسط. سلم كلّ واحد منهم مبلغا محترما من المال مع تذاكر السفر نحو العاصمة التركية اسطنبول أين سيجدون من ينتظرهم هناك.

بعد أن تسلموا المبالغ المالية وتيقّنوا من جدية الأمر أحس الشبان بالغبطة وارتفعت معنوياتهم بعد أن تيقنوا أن أيام المعاناة والشقاء قد ولت إلى غير رجعة، وأن الأيام الأبواب قد فتحت على مصراعيها في وجوههم حيث ينتظرهم عصر جديد مختلف عن كل ما مروا به طوال حياتهم.

★★★★★

الفصل الثامن

تجار الدين

كـما كان مقـررا تنقـل الشـبان إلى المدينـة التركيـة أيـن وجـدوا رجلـين بانتظارهـما هنـاك، اصطحباهـما إلى أحـد دول الـشرق الأوسـط حيـث التحقـوا بتلـك الجماعـة المسـلحة.

أُخـذ الشـبان إلى أحـد معسـكرات التدريـب ليبـدؤوا أولى خطـوات حياتهـم الجديـدة التـي كانـت مختلفـة عـن كل مـا عرفـوه مـن قبـل .

لعـدة شـهور لم يكـن الشـبان كغيرهـم مـن المجنديـن الجـدد عـلى علـم بمـا يحـدث في ذلـك التنظيـم حيـث تـم عزلهـم عن العـالم الخارجـي تمامـا و كل ما يفعلونـه هوالتدريـب وتلقّـي الـدروس التـي غسـلت أدمغتهم، وجعلـت منهم متعصبـين لدرجـة أنهـم كانـوا مسـتعدين للمـوت في سـبيل مـا يؤمنـون بـه.

بعـد نهايـة الفـترة المحـددة للتدريبـات تـم إرسـالهم إلى جبهـات القتـال حيـث شـاركوا في عـدة عمليـات إجراميـة ذهـب ضحيتهـا الكثـير مـن الأبريـاء في عـدة دول مـن الـشرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا.

أصبحـت قلـوب هـؤلاء الشـبان كالصخـر ولم يعـودوا يفرّقـون بـين مسـلم

وغير مسلم فكل من يخالفهم في عقائدهم وأفكارهم يستحق القتل في رأيهم ولو كان أحد أفراد عائلتهم.
مر بعض الوقت ومع توالي الأحداث اكتشف الشبان حقيقة ذلك التنظيم الذي كان مجرد تنظيم سياسي ذي أهداف سياسية واقتصادية يسعى لتحقيقها مستعملا الدين كدعاية لتبرير سياساته وتوجهاته.

عرف الشبان أنهم وقعوا في فخ كبير يصعب الخلاص منه وندموا ندما شديدا على انضمامهم لأولئك المجرمين لدرجة أنهم تمنوا لو أنهم ماتوا قبل أن يحدث معهم ما حدث.

- مرة أخرى يستعمل الدين كوسيلة لتحقيق الأغراض الشخصية. قال أحد الشبان وهو يضرب كفيه ندما وأسفا.

لم يلبث الشبان بعدها أن اكتشفوا أن ذلك التنظيم له على علاقة وثيقة بأحد الدول التي كان يتلقى منها الدعم خفية بينما يظهران أمام الرأي العام على أنهما عدوان يتحاربان.

فاجأ ذلك الأمر الشبان كثيرا وذهلوا للطريقة الخبيثة التي تسير بها الأمور في هذا العالم.

- أي عالم مزيف هذا الذي نعيش فيه؟ قال أحد الشبان متسائلا.

قال آخر: كأن ما يحدث في هذا العالم ليس أكثر من مجرد ألعاب

سحرية يلعبها السياسيون بمساعدة وسائل الإعلام فيجعلون من الأشياء تبدو مقلوبة وعلى غير حقيقتها.
تداعت كل أحلامهم وطموحاتهم بعد أن اكتشفوا أنهم كانوا يعيشون في وهم ووقعوا في خدعة كبيرة، وهم الذين كانوا يظنون أنهم يجاهدون في سبيل الحق ويدافعون عن الضعفاء والمظلومين غير أن الحقيقة كانت مختلفة عن ذلك تماما.

لم تكن مهمة الجماعة التي انضموا إليها أكثر من تحقيق مصالحهم الشخصية وخدمة جهات معينة تسيرهم وتعطيهم الأوامر من بعيد وذلك ما أدركه الشبان لكن بعد فوات الأوان ووقوعهم في الشّرك.

أحسوا بالألم الشديد ليس فقط لأنه قد تم التغرير بهم وخداعهم طوال الفترة الماضية بل لأنهم سفكوا دم كثير من الأرواح البريئة دون وجه حق.

لم يعرفوا ماذا يفعلون فبالإضافة إلى أنهم أصبحوا مطلوبين من الأجهزة الأمنية في عدة دول من الشرق الأوسط فإن الهرب من ذلك التنظيم يعدّ خيانة عقوبتها الموت.

سدّت كل الأبواب في وجوههم ووقعوا في حيرة شديدة فلم يعرفوا كيف يتخلصون من ذلك المأزق فهم أمام خيارين أحلاهما مرّ، فإما أن يفقدوا حياتهم أو يستمروا في السير في الطريق الخطأ. في النهاية لم يأبهوا

بالعواقب وقرروا ومن دون تردد الفرار من أولئك المجرمين لكنهم أجّلوا ذلك لحين إيجاد الخطة الملائمة والوقت المناسب.
مرت أيام وجاءت اللحظة التي رأى الشبان أنها مناسبة للهرب فبعد منتصف تلك الليلة تسلل الشبان تباعا نحو المنطقة التي اتفقوا مع الحارسين اللذين تمت رشوتهما لمساعدتهم على التسلل إلى خارج المعسكر.

لم يمر وقت طويل حتى كان الشبان قد أصبحوا خارج المعسكر لينطلقوا مبتعدين والسعادة تملأ قلوبهم بعد أن نجوا من قبضة أولئك المجرمين، مشوا كل ما تبقى من الليل باحثين عن مكان آمن يختبئون فيه إلى حين أن تهدأ الأمور.

بعد أن قطعوا مسافة طويلة قرر الشبان أن يجلسوا ليرتاحوا بعد أن تأكدوا أنهم وصلوا إلى مكان آمن، مدوا معاطفهم على الأرض ثم تمددوا والصمت يطبق عليهم بعد أن ملأ الحزن قلوبهم وهم يتذكرون الحال المزرية التي وصلوا إليها.

-ما هذه الحال؟ ما الذي يحدث معنا؟ ومن المسؤول عن كل ما حدث لنا؟ تساءل الشاب فجأة كاسرا ذلك الصمت الرهيب الذي يخيم على رفاقه.

لم يجب أحد منهم واستمروا في سكونهم المطبق وكأن أرواحهم قد غادرت أجسادهم.

"من المسؤول عن كل ماحدث" ذلك هو السؤال الصعب الذي ظل الشبان يحاولون أن يُعملوا تفكيرهم باحثين عن إجابة له دون الوصول إلى نتيجة مقنعة فقد كانت اتهاماتهم في كل مرة تتوجه إلى جهة من الجهات، فمرة يتهمون أنفسهم ومرة يتهمون تلك الجماعة الإجرامية التي خدعتهم، ومرة يتهمون جهات أخرى.

بعد مدة من التفكير أدركوا أنهم حتى و إن كانوا ضحية لتلك الجماعة الإجرامية التي استدرجتهم للانضمام إليها إلا أن هناك غيرها من يتحمل مسؤولية ما حدث لهم.

أدركوا متأخرين أنهم هم أنفسهم من يتحملون جزءا كبيرا من المسؤولية فقد كانوا ضحية لجهلهم الذي أعماهم عن رؤية الحقيقة بدءا بتقليدهم الأعمى وانخداعهم بالشعارات الفارغة والأماني الزائفة التي قادتهم لهجر بلدانهم نحو الجنة المزعومة وصولا إلى غفلتهم وطمعهم الذي سمح لذلك الرجل بخداعهم و جرهم للالتحاق بتلك الجماعة المسلحة.

كما أنهم أدركوا كذلك أنهم كانوا ضحية لمجتمعاتهم التي لم تقدرهم حق التقدير وبدل أن تعينهم على محنتهم زادت من همومهم وآذتهم بأقوالها وأفعالها، وحمّلتهم مسؤولية فقرهم وضعفهم بازدرائهم وإغلاق

الأبـواب في وجوههـم فتقاسـمت بذلـك المسـؤولية الأكـبر فيـما حـدث لهـم مـع حكوماتهـم التـي تنكـرت لهـم واضطهدتهـم وحرمتهـم حقوقهـم ودفعتهم دفعـا إلى الرحيـل مكرهـين باتجـاه المجهـول بعـد أن أصابهـم اليـأس والإحبـاط في بلدانهـم فتحوّلـوا إلى صيـد سـهل لتجّـار الديـن الذيـن اسـتغلوهم أسـوء اسـتغلال، فالـكل قـد شـارك فيـما حـدث لهـم وليـس هنـاك طـرف بـريء مـن تلـك الجريمـة النكـراء.

لم يعـد النـدم يجـدي فقـد انكسرت الجـرّة، ولم يعـد بالإمـكان جبرهـا فالـذي فـات لا يمكـن أن يـؤوب، وكل مـا عليهـم هـو التفكـير فيـما هـو آت.

بعـد فـترة الراحـة التـي كانـت طويلـة نوعـا مـا أخـذ الشـبان يفكـرون في المـكان الـذي سـيلجأون إليـه بعـد هروبهـم.

اتفـق الجميـع ومـن دون تفكـير طويـل عـلى العـودة إلى بلدانهـم والاندمـاج مـن جديـد في مجتمعاتهـم التـي غادروهـا قبـل سـنين باحثـين عـن حيـاة أفضـل فـإذ بهـم يتحوّلـون إلى مجرمـين وقتلـة ليرضـوا في الأخـير مـن الغنيمـة بالإيـاب.

قبـل الانطـلاق في رحلـة العـودة إلى ديارهـم وجـب عليهـم وضـع خارطـة طريـق بدقـة حتـى لا يقعـوا في أيـدي الأجهـزة الأمنيـة التـي تتعقبهـم للقبـض عليهـم، وبالتـالي القضـاء مـا تبقـى مـن أعمارهـم في غياهـب السـجون.

جلس الشبان يفكرون في أي الطرق يسلكون للعودة سالمين إلى بلدانهم دون أن يتم اكتشاف أمرهم ، أولى الطرق التي تم استبعادها هي طريق البحر التي كانت ستكون الأكثر أمنا واختصارا للوقت لولا أن الوصول إليه أشبه بالمستحيل في ظل بعد المسافة، وكثرة الحواجز الأمنية المزروعة في كل الطرق المؤدية إليه.

كان عليهم التصرف بسرعة والخروج بأقصى سرعة من تلك الأراضي خشية ملاحقتهم من قبل عناصر ذلك التنظيم حيث سيكون مصيرهم الموت إن وقعوا في قبضتهم.

وقعوا في ورطة كبيرة وعجزوا عن إيجاد حل لوضعهم المعقد، خيّم الصمت عليهم لفترة طويلة بعدما أحسّوا بالعجز، فجأة كسر أحد الشبان ذلك الصمت المطبق قائلا :

لو تمكنا من عبور صحراء الجزيرة والوصول إلى إفريقيا ستكون لنا فرصة كبيرة لتحقيق مبتغانا

-هل أنت مجنون؟ كيف سنتمكن من اجتياز صحراء مقفرة كتلك؟ إن ذلك أمر مستحيل، رد أحد الشبان.

هنا تدخل الشاب قائلا: لكنه لن يكون مستحيلا إن وجدنا دليلا يرافقنا

ويرشـدنا فيهـا.

نظـر الشـبان إلى بعضهـم وقـد ارتفعـت معنوياتهـم وعـاد الأمـل لهـم، ثـم سرعـان مـا انتابهـم اليـأس مـن جديـد عندمـا تسـاءل أحدهـم:

-وأين سنجد هذا الدليل؟

صمـت الشـبان مفكريـن بعمـق في ذلـك الأمـر لكنهـم لم يجـدوا الحـل لتلـك المشـكلة العويصـة.

بعـد وقـت مـن السـكون والتفكـير قـال الشـاب: الحـل يكمـن في صحـراء الشـمال، فهنـاك حيـث يـأتي السـياح بكـثرة ويوجـد بهـا الكثـير مـن الأدلّاء بإمكاننـا الاتفـاق مـع أحدهـم ليرافقنـا في تلـك الصحـراء.

راقـت تلـك الفكـرة للشـبان رغـم عـدم تأكدهـم مـن نجاحهـا فمـن الصعـب إقنـاع أحدهـم بمرافقتـك في صحـراء جـرداء كتلـك الصحـراء مقابـل قـدر قليـل مـن المـال.

بعـد أن عجـزوا عـن إيجـاد حـل آخـر قـرّر الشـبان التّوجـه نحـو صحـراء الشـمال بحثـا عـن دليـل يعـبر بهـم الصحـراء.

-لقـد أمضينـا أعمارنـا كلهـا في المجازفـة والمغامـرة ولا بـأس مـن فعلهـا مـرة أخـرى وإن كان مقـدرا أن يحـدث لنـا شيء مـا فلـن نسـتطيع رده، فالحـذر لا ينجـي مـن القـدر.

قال أحدهم مشجّعا رفاقة على خوض المغامرة في تلك الصحراء المرعبة باتساعها الرهيب وحرارتها الشديدة.

بعد رحلة متعبة وصل الشبان أخيرا إلى صحراء الشمال التي كانوا يأملون أن يجدوا فيها ما يبحثون عنه

-حقا إن هذه الدنيا أعجب مما يتصور الإنسان ولايفهم أسرارها إلا ذوو العقول الراجحة. قال الشاب وهو يراقب غروب الشمس ثم أضاف بعد أن تنهد بحسرة وأسى:
-من كان يتصور أن يحدث كل ما حدث ومن كان يتصور أن تكون العودة لبلداننا حلما لنا بعد أن كانت كل أمانينا أن نهاجر منها؟ من كان يتصور أن تنعكس أحلامنا وأهدافنا بهذه الطريقة؟
-آه كم تتقلب الدنيا بأهلها وكيف تتبدل الأحوال بالمرء في ظرف وجيز؟ حقا إن الإنسان لا يدرك قيمة النعمة التي بين يديه إلا حين يفقدها. قال ذلك والأسف يملأ قلبه.

من ذلك المكان الصحراوي الجميل ستبدأ رحلة الشبان نحو العودة لأوطانهم التي غادروها قبل سنين في رحلة لا يعلمون كم ستكون مدتها ولا ما سيحصل فيها، ربما قد تستمر شهورا وربما سنوات وربما ستكون نهاية محطتهم الأخيرة، فيموتون غرباء في تلك الصحراء القاحلة أو ربما

يُقبض عليهم قبل الوصول لبلدانهم.
تخيلوا الكثير من السيناريوهات والاحتمالات، كانت كلها مخيفة ومرعبة مما أصابهم بالإحباط، الشيء الذي دفعهم للتوقف عن التفكير في ذلك الأمر وتركوا كل شيء للمكتوب، فالتفكير في ما هو قادم لا يمكن أن يغيره بحال من الأحوال.

بعد وصولهم إلى تلك المنطقة الصحراوية السياحية اختلط الشبان بالسياح القادمين من مختلف أنحاء العالم للتمتع بجمال الصحراء الفاتن، والاطلاع على نمط عيش البدو الذين يعيشون في تلك الصحراء الساحرة ذات الهواء النقي والطبيعة الخلابة والمناظر الساحرة الذي تبعث الطمأنينة في النفوس وتدخل البهجة في القلوب.

كان البدو الذين يعيشون على أطراف تلك الصحراء يرتحلون وراء إبلهم بحثا عن الكلأ الذي تتغذى عليه حيواناتهم، كانوا يعيشون حياة بسيطة بعيدة عن التكلف وبهارج الحياة، يتميزون بالنخوة والكرم الشديد، يقضون نهارهم في رعي الإبل وحدائها في تلك الصحراء الشاسعة ذات الرمال والحجارة المختلفة الألوان، ليجتمعوا ليلا في الخيام المتقاربة من بعضها حول النار التي يوقدونها ويبدؤون بارتشاف الشاي وقص الحكايات المسلية والطريفة وإنشاد الشعر وذكر أيام العرب والغناء ...

كانت حياتهم البسيطة في تلك المنطقة الهادئة البعيدة عن ضوضاء

المدن تسحر السياح المتوافدين على المنطقة، كما سحرت الشبان الأربعة الذين اكتشفوا فيها حلاوة العيش في تلك الصحراء بهدوئها وبساطتها وتمنوا لو أنهم يقضون بقية حياتهم فيها لكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه، فالكثير من الأشياء التي يتمناها الإنسان تبقى مجرد أفكار تداعب خياله ووجدانه دون أن تتحقق على أرض الواقع.

في ذلك المكان بحث الشبان كثيرا عن دليل يرافقهم وأخذوا بالتفاوض مع بعض العارفين بخباياها ومسالكها المتعرجة وسط الكثبان الرملية الممتدة لمسافات بعيدة جدا.

بعد بحث مضن وشاق بين المرشدين السياحيين وجدوا ضالتهم أخيرا حيث دلوهم على بعض الشبان الذين نشأوا في تلك الصحراء ويعرفون طرقها ومسالكها وموارد المياه المتواجدة فيها. فرح الشبان كثيرا بنجاحهم في الحصول على ما أرادوا، قال أحدهم وهو يبتسم فرحا:
-لم يبق بيننا وبين إفريقيا سوى أيام نعبر فيها هذه الصحراء القاحلة.

انتابت الدليل نوبة هستيرية من الضحك وهو يشير إلى الشاب الذي وقف متعجبا من ردة فعله ثم قال:
-ما المضحك في كلامي؟
قال الدليل : المضحك انك تقول أننا سنعبر في أيام، هل ظننت هذه الصحراء قرية صغيرة، إنها أكبر بكثير مما تتوقع ثم أضاف:

-سيتطلب الأمر أكثر من شهر للوصول إلى ما وراء هذه الصحراء لذا فلتكونوا مستعدين جيدا لهذه الرحلة الشاقة، فالصحراء لا يخوضها إلا الرجال الحقيقيون أيها الشاب المغربي.

وصل اليوم المحدد الذي اتفقوا فيه مع الدليل لينطلقوا معه يطوون تلك الصحراء نحو طرفها الجنوبي تزود الشبان بما يحتاجونه لقطع أكبر تجمع رملي على وجه الأرض لينطلقوا في رحلة جديدة بحثا عن الشيء الذي ظلوا يبحثون عنه منذ كانوا صغارا.

الشيء الذي سعوا وراءهم و طاردوه لسنوات طويلة في ثلاث قارات مختلفة ومع ذلك لم يستطيعوا الحصول عليه وهو السعادة.

كانوا يأملون في الوصول إلى ذلك الهدف في رحلتهم الجديدة ومع ذلك فإن وصولهم إلى بلدانهم سيخفف عنهم قليلا حتى وإن فشلوا في تحقيقه.

خلال تلك الرحلة الصحراوية وبينما كانت القافلة الصغيرة تتوغل بين الكثبان الرملية المتلاحقة لم يكن لدى الشاب ما يفكر فيه سوى تلك السائحة التركية الشابة التي التقاها في تلك الصحراء فقد كانت الدقائق القليلة التي تحدث فيها إليها كافية لكي تجعلها تعلق في خياله فلا تبارحه، كان كلما توغل في تلك الصحراء استرجع شريط المحادثة القصيرة التي جرت بينهما.

كانت قد حكت له نبذة مختصرة عن قصة حياتها التي كانت حياة هادئة وسعيدة مع عائلتها الغنية التي كانت تلبي كل طلباتها ورغباتها وتصطحبها في رحلات سياحية في كل العطل.

قارن بين تلك الحياة الرغيدة التي عاشتها تلك التركية بحياته التي كانت مليئة بالمشاق والهموم والسعي وراء أحلام مزيفة في أماكن مختلفة.

أحسّ بالحزن والألم عندما تذكّر كل ما مر به وتمنى لو لم يكن قد التقى بها ولم يعرفها فقد ذكّرته بالكثير من الذكريات السيئة، من بين تلك الذكريات زميلته السابقة في الجامعة التي رفضته قبل سنوات لأنه فقير، لم يكن جرحه قد اندمل بعد لكنه لم يعد به يحسّ بألمه بعد أن تعود عليه بالإضافه إلى أنه أصبح من الماضي ولم يعد له أثر في الحاضر إلا من خلال الذكريات.

لم يتساءل إن كانت سعيدة مع زوجها الغني الذي فضلته عليه فهو لم يعد يهتم لأمرها، كل ما تساءل عنه: ترى كم ولدا لديها الآن؟ لا بد أن لديها ولدين أو ثلاث.

تنهد تنهيدة طويلة ورفع طرفه تجاه مرافقيه الذين كانوا يتقدمون أمامه في تلك الصحراء، وهم غارقون في صمت رهيب تماما كالصمت

الرهيب الذي يسود تلك القفار .
حدث نفسه وهو ينظر إليهم: يا لتصاريف الحياة، كيف يجمع القدر بين أناس من أماكن بعيدة ومختلفة لم يكن أحدهم يعرف شيئا عن الآخر بينما يفرق بين الأقرباء وأبناء العائلة الواحدة.

أخذ يتأملهم لبعض الوقت وهو يسترجع ذكريات طفولته مع أسرته في تلك القرية ثم انتقاله إلى المدينة وأيام دراسته في المدرسة وعمله في المخزن والكثير من الذكريات مع المقربين منه لكنه سرعان ما عاد للغرق في التفكير في تلك الشابة التي رافقه طيفها في رحلته الصحراوية.

لم يكن يعرف إن كان سيلتقيها ثانية كما وعدها فهو لا يعرف إن كان سيصل إلى بلده أم أن القدر يخبّئ له أشياء أخرى فلا أحد يستطيع الجزم بما سيكون في قادم الزمان.

- لن أهتم لهذا الأمر كثيرا فما قدر له أن يحدث سيحدث لا محالة، ولا يمكن لأحد في هذا الوجود الوقوف في وجه المكتوب، حدث نفسه .

استمرت القافلة الصغيرة في التقدم لعدة أيام متلاحقة وسط دهشة الشبان الذين لم يكونوا يتخيلون أنه يوجد مكان على وجه الأرض بكل تلك القسوة والوحشة، كان الطريق الرملي الذي سلكوه موحشا جدا ولا أثر فيه لأي نوع من أنواع الحياة، حرارة محرقة، عواصف رملية

متصاعدة ومتلاحقة، جفاف مميت، سكون مخيف، كثبان رملية لا تنتهي، ذلك كل ما شاهده الشبان في تلك الصحراء التي مضى أكثر من أسبوع على تقدمهم نحو قلبها

كانوا كلما توغّلوا فيها ازداد اندهاشهم أكثر فأكثر، حيث لم يكونوا يتصورون كل تلك القساوة والغلظة تطبع تلك الصحراء التي كانت في يوم من الأيام مروجا وأنهارا وغابات أكثر كثافة من غابات الأمازون تعج بالحياة والنشاط .

-قال الدليل :

أنتم لم تروا شيئا بعد فبعد أيام سندخل سلسلة الكثبان الرملية العملاقة والعروق الضخمة المتلاحقة والمسالك الوعرة المتشابهة جدا حيث تتطلب تركيزا شديدا؛ لأن الخطأ بها يعني الضياع وسط تلك الأمواج الرملية التي تكثر فيها العواصف.

أصيب الشبان بالخوف والهلع من كلام الدليل ولم يردوا بأي بشيء لكن ما طمأنهم وسكن مخاوفهم كان شيئا واحدا وهو أن الدليل الذي يرافقهم بارع جدا في السير في تلك الصحراء، وهو من النوع الذي يمكن الاعتماد عليه والثقة به.

بعد أيام من المسير دخل الشبان يقودهم الدليل سلسلة الجبال الرملية

التـي كانـت كالبحـر الواسـع الـذي لا طـرف لـه، مشـوا في تلـك الطـرق المتعرجـة لمـدة ثلاثـة أيـام، بـدأت قواهـم تخـور وأجسـادهم تضعـف وبـدت آثـار اليـأس عـلى وجوههـم التـي تغـير لونهـا.

أخـذ الشـاب يقلـب ناظريـه في تلـك الصحـراء التـي لا نهايـة لهـا وقـد ذكرتـه بكثبانهـا التـي لا تنتهـي باتسـاع البحـر الـذي خاضـه قبـل سـنين عندمـا غـادر الوطـن باتجـاه أوروبـا

- يـا لضعـف الإنسـان وعجـزه، كيـف يظن البعـض بأنفسـهم القـوة والجبروت، وهـم لا يمثّلـون شـيئا في هـذا الكوكـب الفسـيح بصحاريـه الحارقـة وبحـاره الهائجـة وجبالـه الشـاهقة وطبيعتـه القاسـية، كل هـذا فقـط في كوكـب صغـير جـدا ليـس أكـثر مـن حبـة رمـل في صحـراء مقارنـة بهـذا الكـون الفسـيح وكواكبـه العملاقـة التـي لا تعـد ولا تحـصى.

قـال الشـاب باندهـاش في صبـاح اليـوم الرابـع، وبينـما كان الشـبّان يواصلـون تقدمهـم إذ هبـت عاصفـة رمليـة قويـة جـدا، تطايـر الغبـار في تلـك الصحـراء الشاسـعة فأصبحـت الرؤيـة شـبه منعدمـة.

لم يعـودوا يـرون سـوى بضعـة أمتـار أمامهـم، حاولـوا البحـث عـن مـكان يختبئـون فيـه مـن تلـك الزوبعـة لكنهـم لم يفلحـوا، ثـم تذكـروا أنـه لم يكـن بإمكانهـم التوقـف حتـى ولـو وجـدوا مكانـا يحتمـون بـه مـن تلـك العاصفـة فقـد كانـوا مجبريـن عـلى الاسـتمرار في التقـدم؛ لأن تأخّرهـم سـيجعلهم

يموتـون عطشـا بعـد مـا نفـد كل مـا معهـم مـن مـاء.
خـارت قـوى الشـبان وبـدأ اليـأس يتسـلل إلى نفوسـهم لحظـة بعـد أخـرى حتـى أنهـم همـوا بالاستسـلام والتوقـف غـير أن الدليـل كان يصيـح بهـم في كل مـرة ويشـجعهم عـلى المقاومـة
-هيا، استمروا بالتقدم، لا تتوقفوا وإلا ستموتون عطشا

قـاوم الشـبان وبذلـوا أقـصى طاقتهـم مسـتمرين في المسـير دون توقـف رغـم العطـش الشـديد الـذي أصابهـم.

لمـدة ثمـان سـاعات كاملـة ظلـت القافلـة في التحـرك وسـط تلـك الزوبعـة التـي مازالـت مسـتمرة وهنـاك توقـف الدليـل بعـد أن انتبـه إلى أمـر مريـع مفجـع.

جثا على ركبتيه وأمسك برأسه وهو يقول:
يـا للمصيبـة لقـد ظللنـا الطريـق، لقـد ظلنـا الطريـق، ثـم شرع بالدعـاء وهـو يرفـع رأسـه إلى السـماء لمـدة طويلة.

نظـر الشـبان إلى بعضهـم وقـد اصفـرت وجوههـم، وتجمـد الـدم في عروقهـم مـن شـدة الإحبـاط واليـأس والهلـع الـذي أصابهـم.

قـال الدليـل الـذي لاحـظ ذلـك: علينـا الانحـراف بسرعـة نحـو الغـرب حتـى نعـثر عـلى الطريـق مجـددا فـلا يليـق بنـا الاستسـلام عنـد أول مشـكل نواجهه،

رغـم أن الشـبان كانـوا يتمنـون قتلـه في تلـك اللحظـة لشـدة غضبهـم منـه إلا أنهـم لم يجـدوا بـدا مـن إطاعتـه والسـير وراءه نحـو الطريـق الـذي كان مـن المفـترض أن يسـلكوه لتعـود القافلـة أدراجهـا بحثـا عـن ذلـك الطريـق.

اتجـه الشـبان مـع الدليـل الـذي يتقدمهـم نحـو الغـرب بحثـا عـن الطريـق الـذي دخلـوا منـه لتلـك الجبـال الرمليـة، واسـتمروا بالمـشي لوقـت طويـل بحثـا عـن مخـرج مـن ذلـك المـكان القفـر لكـن دون جـدوى فقـد فقـدوا طريـق العـودة و ضاعـوا في قلـب تلـك الصحـراء الموحشـة التـي لا أثـر فيهـا لقطـرة مـاء.

تلاشـت كل آمـال الشـبان الذيـن يئسـوا مـن النجـاة وأيقنـوا بالهـلاك بشـكل لا يدعـو إلى الشـك.

هامـوا عـلى وجوههـم في تلـك الصحـراء القاسـية، وجثـوا عـلى ركبهـم ولم يعـد باسـتطاعتهم المقاومـة أكـثر.

لم يكـن أمامهـم غـير الاستسـلام للأمـر الواقـع وانتظـار المـوت حيـث التجـؤوا إلى مـكان بـه بعـض الأشـجار الصغـيرة للاسـتضلال مـن الحـرارة المحرقـة وتمـددوا تحتهـا في انتظـار مصيرهـم المحتـوم حيـث سـتكون تلـك الصحـراء مقبرتهـم التـي سـيثوون فيهـا حتـى آخـر الدهـر.

خلال تلك اللحظات لم يكن أحد منهم يفكر سوى في أمر واحد وهو "الموت عطشا"

-من كان يتصور أن تكون نهايتنا بهذه الطريقة وفي هذا المكان، قال أحد الشبان والحزن يملأ قلبه
- نحن لم نمت بعد وطالما أننا ما زلنا نتنفس فلن نستسلم أبدا، قال الدليل ثم أضاف وهو يقلّب عينيه في تلك الصحراء الشاسعة ويلهث من شدة العطش:
-علينا أن لا نفقد الأمل مهما حدث، سوف نستمر في المقاومة حتى النهاية

بعد الاستراحة لبعض الوقت تحرك الشبان مرة أخرى مكملين رحلتهم نحو الحياة.

ساروا لعدة ساعات في تلك الصحراء دون أن يعلموا إلى أين يتجهون إلى أن لاحت لهم من بعيد بعض الأشجار المتقاربة.

- إنها أشجار الحياة التي ستنقذ حياتنا، الحمد والشكر لك يا رب. صاح الدليل ثم سجد على الأرض من شدة الفرح

تعجب الشبان الذين لم يفهموا سبب فرحته لرؤية بضع شجيرات في قلب صحراء جافة حتى أنهم فكروا أن العطش والتعب قد أصاباه بالجنون قبل أن يزول عجبهم بعد أن قال:

- يقول خبراء الصحراء ان هذه الاشجار تنبت حيث يكون الماء، كل ما علينا هو أن نحفر قريبا منها ونرى إن كان هناك ماء هنا.

لم يصدق الشبان ما سمعوه وهرولوا باتجاه تلك الأشجار وأخذوا بالحفر من دون توقف في تلك الرمال فقد أنساهم كلام الدليل التعب الشديد الذي أصابهم.

أخذوا يحفرون في تلك الرمال بلا كلل ولا ملل حتى بلغوا المترين تقريبا وإذ بالماء ينبثق ببطء من تلك الحفرة التي حفروها

كانت فرحة الشبان عظيمة جدا واستمروا بالحفر حتى نبع الكثير من الماء

تعانقوا فرحا وأخذوا يشربون دون توقف حتى امتلأت بطونهم ثم ملؤوا كل ما معهم من أوعية.

بعد ارتوائهم تمدد الشبان تحت تلك الأشجار التي أنقذت حياتهم، وذلك

أن الدليل الذي يرافقهم قرر عدم التحرك ثانية لغاية هبوط الليل. -سنبقى هنا حتى هبوط الليل. قال الدليل الذي قرر المسير ليلا وذلك للاهتداء بالنجوم التي ستكون الدليل سيخرجهم من تلك الصحراء الموحشة.

كان قرار الدليل صائبا حيث أنهم وبالاعتماد على النجوم تمكنوا من الخروج من تلك المفازة و بلوغ الطرف الجنوبي بعد أيام من المسير.

- عدنا مرة أخرى من الموت. قال أحد الشبان وهو يقفز من الفرح رفقة رفاقه الذين تهلّلت وجوههم بعد أن نجوا من الموت المحقق.

لم يصدق الشبان أنهم خرجوا من تلك الصحراء وأن حياة جديدة قد كتبت لهم بعدما وصلوا لحافة الموت وظنوا أنهم قد قُضي عليهم.

- نحن الآن في أرض اليمن، عليكم بالتوجه نحو الغرب للوصول إلى البحر الأحمر الفاصل بين قارتي إفريقيا وآسيا، قال الدليل الذي كان مرتاحا وفخورا بإنقاذه لنفسه وللشبان

بعد أن نجوا بأعجوبة من تلك الصحراء المهلكة ودّع الشبان الدليل لينطلقوا باتجاه البحر الأحمر في مغامرة جديدة نحو حلم العودة للوطن.

الفصل التاسع

الأثرياء المتشردون

بعد خروجهم من تلك لصحراء القاسية استقل الشبان سيارة أجرة لينطلقوا نحو البحر الأحمر الذي يفصل القارتين الافريقية و الأسيوية خلال تلك الرحلة سرح كل واحد من الشبان بخياله بعيدا وهو يتذكر أيامه السابقة التي عاشها في بلده وردة فعل الناس حين يرونه قد عاد من جديد.

مرت سنوات على مغادرتهم لبلدانهم ولا بد أن أشياء كثيرة تغيرت، ذلك ما فكر فيه الشبان وهم يتلهفون شوقا للعودة إليها من جديد.

بعد ساعات طويلة من المسير انتهت رحلتهم، وتوقفت السيارة أمام أحد الفنادق الواقعة على بعد قليل من البحر

ما إن نظر الشاب باتجاه البحر حتى عادت به الذكريات إلى رحلته البحرية في البحر الأبيض والتي كان قد مر عليها سنوات لكنها ما تزال محفورة في ذاكرته بأحداثها المؤلمة، أخذ يتذكر تلك اللحظات المرعبة التي سبقت الكارثة، تذكر صيحات الأطفال واستغاثة المهاجرين وهم يغرقون فأحس بألم فضيع يخترق قلبه لكنه لم يكن أفضع من ألمه وهو يتذكر أصدقاءه الثلاثة الذين غرقوا في تلك الرحلة المشؤومة.

أخذ يسترجع ذكرياته معهم في المدينة، أثناء سهرهم في الحي ورحلتهم من أجل الالتحاق بالجيش، وفي السجن، رحلتهم نحو البحر، لحظاتهم الأخيرة قبل الغرق، آخر نظرة ألقاها عليهم والكثير من الذكريات الأخرى.

أحس بالحنين والشوق لتلك الأيام التي قضاها معهم والتي كان يراها تعيسة وبائسة ذات يوم ولم يكن يتوقع أنها ستكون ذكريات جميلة في يوم من الأيام.

-ليت تلك الأيام التي كنا نراها سيئة تعود ونعود للاجتماع من جديد.
قال في نفسه متألما
أحسّ بلوعة شديدة لفراقهم وانهمرت الدموع من عينيه كالسيل الجارف، لاسيما عندما تذكر أن عليه مواجهة عائلاتهم عند عودته إلى الوطن حيث سيواجه الكثير من الأسئلة بشأنهم.

في اليوم التالي استعد الشبان لرحلتهم البحرية التي ستكون عبر السفينة باتجاه الغرب نحو الساحل الإفريقي.

-كل ما يفصلنا عن الوصول للوطن هو هذا البحر والصحراء الافريقية، قال أحد الشبان ووجهه يتهلل فرحا كما هو شأن رفاقه، في الوقت الذي كان الشاب يجلس كئيبا والهم يكسو وجهه فهو لم يكن يدري

أ يفـرح بعودتـه لبـلاده بعـد وقـت طويـل مـن مغادرتهـا أم يحـزن بسـبب كل مـا حصـل لـه في مغامرتـه الفاشـلة؟ التـي اسـتمرت لسـنوات كانـت كلهـا عجافـا ومـن دون أي فائـدة تذكـر.

- بـأي وجـه سـأقابل النـاس عنـد عـودتي خائبـا ومـن دون أصدقـائي الذيـن رافقـوني في مغامـرتي، تسـاءل وهـو ينظـر إلى أمـواج البحـر المتلاطمـة؟

بعـد رحلـة بحريـة هادئـة وصلـت السـفينة أخـيرا لتتوقـف عـلى السـاحل الإفريقـي الـذي لا يفصلـه عـن الوطـن سـوى الصحـراء الإفريقـة الرهيبـة الاتسـاع.

أحـس الشـبان أن الحـظ بـدأ يحالفهـم وأن عودتهـم إلى أوطانهـم أضحـت ممكنـة أكـثر مـن أي وقـت آخـر. لم يكـن إيجـاد مـن ينقلهـم نحـو بلدانهـم أمـرا عسـيرا، فالـشيء الوحيـد الـذي يحتاجونـه في تلـك الأنحـاء هـو المـال الذي سـيدفعونه لأحـد المهرّبـين المتخصصـين في التجـوال في تلـك الصحـاري المترامية الأطـراف. مـن حسـن حظهـم كان لديهـم مـا يكفـي مـن المـال لإسـالة لعـاب أحدهـم، حيـث وافـق عـلى نقلهـم لقطـع الصحـراء الإفريقيـة الكـبرى باتجـاه جنـوب الجزائـر في رحلـة طويلـة جـدا ستسـتمر لأكـثر مـن عشريـن يومـا.

في الوقت المحدد انطلقت السيارة الرباعية الدفع وأخذت تشق الفيافي والقفار باتجـاه الوطـن الـذي أصبـح حلمهـم بعدمـا نفروا منـه وهجـروه في وقت مضى

- لم أكن أظن أنه توجد أماكن جميلة كهذه في إفريقيا قال أحد الشبان ثم أضاف:
-كنت أعتقد أن إفريقيا كلها مجرد صحراء قاحلة ليس فيها إلا الرمال ولا ماء فيها ولا شجر.

قال ذلك بعد أن تفاجأ كغيره من الشبان بوجود بعض الأماكن الساحرة في القارة التي ظنوها مجرد صحراء جرداء، فقد مروا خلال رحلتهم بالكثير من الواحات الجميلة والمحميات الطبيعية التي تزخر بمختلف أنواع الحيوانات والغابات المترامية والأنهار الجارية.

كان ذلك مدهشا حقا بالنسبة لهم حيث لم يتوقعوا ذلك تماما في تلك القارة التي كانوا يظنون أنها مجرد كثبان رملية متلاحقة، كانوا في بعض الأحيان يضطرون لسلك طرق صحراوية قاحلة وصعبة ومضايق خطيرة وذلك تجنبا لقطاع الطرق والعصابات التي تنتشر في بعض الأماكن في تلك الصحراء للسطو على من يمرّ من تلك الدروب.

-يا لها من قارة عجيبة إفريقيا هذه، لا تبحث عن شيء إلا وتجده فيها، البر والبحر والسهل واليابسة والأراضي الخصبة والقاحلة والحرارة الشديدة والبرد القارس، والغنى والفقر، إنها حقا بلاد عجيبة وغريبة.

قال أحدهم مندهشا مما رأى أثناء رحلته خلال تلك الرحلة.

كانـوا يمـرون بـين الحـين والآخـر بقافلـة مـن المسـافرين الأفارقـة الـذي كان البـؤس باديـا عـلى وجوههـم وهـم يتجهـون نحـو الشـمال باتجـاه بلـدان الشـمال الإفريقـي.

كانـوا بأعـداد كبـيرة وهـم يقطعـون مسـافات رهيبـة الاتسـاع عـلى أقدامهـم الحافيـة، يلبسـون ثيابـا رثـة ويحملـون الأطفـال الذيـن يبـدو عليهـم الهـزال مـن بعيـد

-كيـف يتركـون كل هـذه الـثروات ويهربـون باتجـاه بلـدان لا تملـك ربـع مـا يمتلكـون. تسـاءل أحـد الشـبان مندهشـا مـما يفعلـه أولئـك الأفارقـة.
ابتسـم السـائق ابتسـامة خفيفـة ثـم صمـت للحظـات بشـكل أثـار اسـتغراب الشـبان قبـل أن يتكلـم قائـلا:
-قريبـا سـتعرفون لمـاذا يهـرب الأفارقـة مـن بلدانهـم المليئـة بالـثروات نحـو الشـمال، ثـم صمـت صمتـا رهيبـا بعدهـا ولم يتكلـم قـط كـما كان عليـه الحـال منـذ انطـلاق الرحلـة.

بعـد أيـام مـن المسـير وبينـما هـم يتقدمـون في تلـك الصحـراء لاحـظ الشـبان دخانـا يتصاعـد مـن بعيـد ويغطـي الأفـق مـع دوي آلات ميكانيكيـة ينبعـث مـن ذلـك المـكان.
تسـاءل الشـبان عـن مصـدر ذلـك مسـتغربين وجـود ذلـك في تلـك الصحـراء

المقفـرة التـي تخلـو مـن أي أثـر للحيـاة.

قـال السـائق وهـو يبتسـم: أ لم أقـل أنكـم سـتعرفون سـبب معانـاة هـؤلاء الأفارقـة وهجرهـم لبلدانهـم الغنيـة؟

ازدادت حـيرة الشـبان أكـثر فأكـثر وفكـروا للحظـات بـأن ذلـك السـائق مختـل عقليـا، فبينـما يحدثونـه عـن مصـدر الدخـان والضجيـج يحدثهـم هوعـن سـبب معانـاة الأفارقـة

-ماذا تقصد؟ هلّا تكلمت بوضوح، قال أحد الشبان
قـال السـائق :مـا قصـدت قولـه أن ذلـك الدخـان وذلـك الـدوي مصـدره إحدى الـشركات الأجنبيـة وهـي تسـتخرج الذهـب والمعـادن النفيسـة التـي تعـود ملكيتهـا في الأصـل لهـؤلاء المهاجريـن الأفارقـة
أضاف بعدها:
كل ثـروات هـذه البلـدان ينهبهـا الأجانـب ويبنـون بهـا بلدانهـم ويطورونهـا، بينـما يضطـرون أصحابهـا الأفارقـة للعيـش في فقـر مدقـع ومجاعـات مميتـة وحـروب لا تنتهـي فيضطـر كثـير منهـم للهـروب نحـو الشـمال كـما رأيتـم خـلال هـذه الرحلـة.

قال بعدها وهو غاضب :
-أجـل، هـذه هـي الحقيقـة التـي لا يريـدون أن يعرفهـا النـاس، فهـذه القـارة

هـي الأغنـى عـلى الإطـلاق عـلى ظهـر هـذا الكوكـب فهـي تحتـوي عـلى كل أنـواع النفائـس والـثروات، لكـن سـكانها هـم الأفقـر في هـذا العـالم وكل ذلـك بسـبب هـؤلاء الأجانـب الـذي يدعـون الإنسـانية والدفـاع عـن حقوق الإنسـان في ندواتهـم ومؤتمراتهـم أمـام شاشـات الإعـلام.

ثم تابع قائلا:

وليتهـم يكتفـون بـكل ذلـك بـل تجدهـم يصفـون الأفارقـة بالهمـج والمتخلفين ويطالبـون بمنعهـم مـن الدخـول لبلدانهم.

-إذن فهـؤلاء المتـشردون الذيـن مررنـا بهم هـم في حقيقة الأمر أثرياء تم سـلب ثرواتهـم وإجبارهـم عـلى النـزوح بحثـا عـن لقمـة يأكلونهـا؟ ، أي عـالم ظـالم وحقـير هـذا الـذي نعيـش فيـه. قـال أحـد الشـبان مسـتنكرا بشـدة مـا يحـدث لهـؤلاء الأفارقـة الذيـن كان البؤس يصاحبهـم في رحلاتهم الطويلة نحو الشـمال.

بعـد رحلـة دامـت لأيـام طويلـة وصـل الشـبان أخـيرا إلى شـمال مـالي حيـث أحسـوا بالراحـة وأيقنـوا بشـكل لا يدعـو للشـك أن عودتهـم للوطـن أصبحـت قضيـة وقـت فقـط وأن غربتهـم التـي اسـتمرت لسـنوات طويلـة قـد أوشـكت عـلى نهايتهـا.

بقـوا هنالـك للاسـتراحة لبعـض الوقـت ثـم اتفقـوا بعدهـا مـع أحـد المهربـين الطـوارق لمواصلـة رحلتهـم نحـو الشـمال وإدخالهـم للحـدود الجزائريـة.

بعد رحلة طويلة وشاقة دخل الشبان جنوب الجزائر وهم لا يصدقون أنفسهم من شدة الفرحة خاصة الشاب الذي سجد يقبل تراب الأرض الذي غادرها نافرا منها قبل سنوات.

تواصلت الرحلة نحو الشمال إلى أن بلغ الشبان مدينة تمنراست، هناك أحسّ الشاب أنه فعلا أصبح في وطنه وأحسّ براحة لم يحسّ بها منذ أيام طفولته.

بعد الوصول إلى المدينة أخذ الشبان بالتجول فيها ومعنوياتهم تعانق السحاب فرحا بالعودة للوطن بعد سنوات طويلة.
أثناء تجوالهم مروا بإحدى المكتبات المتواجدة في وسط المدينة، فقرروا الدخول والاطلاع على آخر المؤلفات.

كان الشاب يتفحص الكتب ويقلبها إلى أن لفت انتباهه أحد الكتب التي كان عنوانها **"الهجرة السرية"**

أحسّ الشاب بالفضول لمعرفة مضمون ذلك الكتاب فحمله وأخذ يتفحصه وهو متلهف ليرى ما الذي كتب عن ذلك الموضوع الذي استهلك جزءا معتبرا من حياته؟

مـا إن نظـر عـلى غـلاف ذلـك الكتـاب حتـى أصابتـه الدهشـة والذهـول لدرجـة أنـه بـدأ في الترنـح وكأن قدميـه لم تعـودا قادرتـين عـلى حملـه، كان مـا قـرأه عـلى الغـلاف قـد أوشـك أن يذهـب بعقلـه ويصيبـه بالجنـون مؤلـف ذلـك الكتـاب هـو نفسـه اسـم صديقـه السـابق الـذي رفـض الهجـرة معهـم قبـل سـنوات وفضـل البقـاء والعمـل في مخـزن الإسـمنت.

-لا يمكـن أن يكـون هـو، هـذا مسـتحيل، لا بـد أنـه مجـرد تشـابه في الأسـماء.
قـال الشـاب ثـم أضـاف:
لا بـد أن صديقـي السـابق مـا زال يعمـل في مخـزن الإسـمنت حتـى الآن، مـا شـأنه هـو والكتابـة والتأليـف؟ فهـو لم يكـن قـادرا حتـى عـلى قـراءة أو كتابـة نـص بسـيط بشـكل صحيـح منـذ عرفتـه.

فتـح الكتـاب ويـداه ترتجفـان مـن شـدة الدهشـة، كان أول عنـوان صادفـه هـو "نبـذة مختـصرة عـن المؤلـف"
-الآن سـأعرف الحقيقـة وسـيتبين أنـه مجـرد تشـابه في الأسـماء، قـال ذلـك ويـداه مـا تـزالان ترتجفـان.

أخـذ يقـرأ سـيرة المؤلـف وإذا بـه يكتشـف أنـه يفتتـح كتابـه بقولـه أن مـن ألهمـه كتابـة ذلـك الكتـاب هـم أصدقـاؤه الأربعـة الذيـن كان يعمـل معهـم في مخـزن الإسـمنت قبـل سـنوات ثـم هجرتهـم واختفـاء أخبارهـم منـذ مغادرتهـم للوطـن.

لقد كان المؤلف هو ذاته صديقه السابق الذي أصبح كاتبا مشهورا وشخصية معروفة في كل البلاد. فاجأ الأمر الشاب لدرجة غير قابلة للوصف ثم أخذ يتمتم كالمجنون:

-كيف يحدث هذا؟ هذا مستحيل، لا بد أن في الأمر لبسا ما.

- ترى ما الذي يكون قد حدث في غيابي، هل أنا في حلم أو في حقيقة؟

أصيب الشاب بالهذيان ووقف غير مصدق لما عرف لدرجة لم يعد قادرا على السيطرة على نفسه من شدة الاندهاش.

قضى الشبان ثلاثة أيام في المدينة حيث ارتاحوا خلالها من عناء السفر الطويل وآلاف الكيلومترات التي قطعوها في الصحاري الإفريقية الرهيبة الاتساع. قرروا بعدها مواصلة الرحلة نحو الشمال حيث سيفترقون ليعود كل منهم إلى أهله ومدينته التي لم تطأها أقدامهم منذ سنين.

خلال تلك الرحلة جالت في ذهن الشاب الكثير الأفكار، وفكر بالكثير من الذكريات لكن ذلك كله لم يكن بقدر تفكيره في صديقه الذي تركه عاملا في مخزن بسيط ليعود ويجده قد أصبح شخصية مشهورة

-أي قدر هذا، من قطع البراري والبحار والقفار بحثا عن النجاح يعود خائبا وفاشلا ومن بقي هنا في المعاناة يحقق نجاحا باهرا، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ ما السر وراء كل ما حدث؟ قال الشاب متسائلا والإحباط يقطّع نفسه.

بعـد رحلـة شـاقة وطويلـة وصـل الشـاب إلى المدينـة التـي غادرهـا قبـل سـنوات وهـو يحلـم بالمجـد والعـودة إليهـا حامـلا رايـة النـصر والنجـاح لكـن العكـس هـو مـا حـدث في النهايـة

أحـس بمـرارة شـديدة وهـو يفكـر بذلـك، وقـف لمـدة طويلـة وهـو يتأمـل بعينـين حزينتـين أزقتهـا وبناياتهـا وعماراتهـا ومحلاتهـا مسـترجعا كل ذكرياتـه التـي مـرت بـه فيهـا.

لم تكـن أشـياء كثـيرة قـد تغـيرت في تلـك المدينـة عـما تركـه قبـل رحيلـه، مـا زالـت البنايـات والشـوارع والطرقـات والمحـلات عـلى هيئتهـا التـي تركهـا عليهـا قبـل رحيلـه.

بعـد تلـك الوقفـة التـي كانـت طويلـة نوعـا تحـرك بخطـوات متثاقلـة متوجـا نحـو حيـه الـذي يقطنـه وهـو لا يفكّـر سـوى بوالدتـه التـي لم يرها منذ سـنين.

-تـرى كيـف حالهـا؟ وكيـف سـيكون رد فعلهـا عندمـا تـراني؟ تسـاءل الشـاب في نفسـه.

أثنـاء مـروره في طريقـه إلى الحـي مّـر قريبـا مـن مخـزن الإسـمنت الـذي كان يعمـل بـه سـابقا مـع رفقـاء دربـه الذيـن اختلـف طريقهـم عـن طريقـه

ومصيرهـم عـن مصـيره.
وقـف متسـمرا في مكانـه ثـم أخـذ يسـترجع كل اللحظـات التـي قضاهـا في ذلـك المخـزن مـع أصدقائـه الـذي رحلـوا عـن الحيـاة منـذ سـنوات.

عـادت بـه الذكريـات إلى تلـك الأيـام التـي خلفهـا وراءه وتذكـر كل لحظـة قضاهـا في ذلـك المـكان مـع رفاقـه الراحلـين.

-مـن كان يتصـور أن يحـدث كل مـا حـدث؟ قـال في نفسـه وهـو يسـترجع ذكريـات المـاضي بحـزن وأسى.

بينـما هـو واقـف يتامـل ذلـك المخـزن بحـزن شـديد وإذا بسـيارة تتوقـف قريبـا منـه في الجهـة المقبلـة للرصيـف ثـم نـزل منهـا رجـل يلبـس بدلـة فاخرة ويضـع نظـارة عـلى عينيـه.

أخذ ذاك الرجل بالاقتراب منه بينما كان الشاب مستغربا
وقـف ذاك الرجـل قريبـا منـه وهـو يبتسـم ابتسـامة عريضـة ثـم قـال: لا أصـدق مـا أرى، لقـد عـدت إلينـا أخـيرا يـا صديقـي
قـال الشـاب وعينـاه تغرورقـان بالدمـوع: صديقـي القديـم، كيـف حالـك، هـل أنـت بخير؟
-كيـف لا أكـون بخـير وأنـا أراك تعـود إلينـا يـا صديقـي. قـال الرجـل الـذي هـو في الحقيقـة صديقـه السـابق الـذي رفـض الهجـرة معهـم قبـل سـنوات.

تعانق الشابان عناقا حارا لمدة طويلة وعيناهما تغرورقان بالدموع بعد سنوات طويلة من الفراق

ثم إن صديقه سأله مستغربا: أين أصدقاؤنا الثلاثة؟ لماذا لم يعودوا معك؟ وارب الشاب كي لا يرد على ذلك السؤال الذي كان أثقل عليه من الجبال ثم سأل صديقه:

-قل لي أنت ما الذي حدث في غيابي، وكيف حصل معك كل هذا؟

فرد صديقه: إنها قصة طويلة سأرويها لك ونحن نتناول وجبة العشاء، أيعقل أن لا نحتفل بعودتك إلينا؟

ركب الشاب السيارة مع صديقه القديم ثم ذهبا إلى أحد المطاعم لتناول وجبة الغداء ومواصلة الحديث في المطعم الذي هو في الحقيقة ملك لصديقه، الذي كان قد اشتغل كذلك بالتجارة حتى أصبح من كبار تجار المدينة.

كان الشاب مذهولا من كل ما حدث ولا يكاد يصدق ما صارت إليه الأمور في سنوات غيابه عن البلد.

لم يبد أي اهتمام بالطعام الذي وضع أمامه رغم الجوع الشديد الذي كان يحس به، فقد كان يلح بشدة على رفيقه لمعرفة جواب لأسئلته

التـي تهاطلـت عـلى ذهنـه كالمطـر

-ما الذي حدث؟

كيف تخلصت من العمل في المخزن؟

كيـف بلغـت مـا بلغـت؟ وغيرهـا مـن الاسـئلة التـي قتلـه الفضـول لمعرفـة أجوبتهـا

ابتسـم صديقـه بهـدوء ثـم قـال: لـن تصـدق إذا قلـت لـك أن مـا وصلـت إليـه كان بفضلـك أنت.

بقـي الشـاب الـذي كان مندهشـا صامتـا ولم ينطـق بكلمـة واحـدة وانحطـت معنوياتـه أكـثر فأكـثر وهـو ينتظـر أن يسـمع المزيـد مـن صديقـه الـذي أضـاف:

-كل مـا فعلتـه هـو أني خطـوت خطواتـك وفعلـت مـا فعلـت أنـت بالضبـط فقـد عـدت للدراسـة مثلـك وحققـت فيهـا النجـاح حتـى تخرجـت مـن الجامعـة.

بعدهـا عانيـت البطالـة مثلـك ومثـل الجميـع لكنـي لم أستسـلم أبـدا ولم أكتف بالشـكوى والتذمـر مثلـما يفعـل أغلـب الشـبان في البـلاد بـل سـعيت في كل الاتجاهـات واتخـذت بالأسـباب حتـى فتـح اللـه لي الأبـواب عـلى مصراعيهـا.

أضاف بعدها:

الفـرق بينـي بينـك يـا صديقـي أني لم أفقـد الأمـل يومـا وظللـت أبحـث دائمـا

عـن حـلّ لوضعيتـي رغـم إغـلاق كل الأبـواب في وجهـي، ومـع ذلـك لم أفكـر يومـا في فعـل مـا فعلتـم؛ لأني كنـت دائمـا عـلى قناعـة أن الهـروب لـن يكـون حـلا بـأي حـال مـن الأحـوال.

أضاف بعدها:

بقيـت عـلى ذلـك الحـال لمـدة مـن الزمـن، لم أكـن أكـن أملـك سـوى تجـارة بسـيطة كنـت أسـيرها إلى أن تذكـرت كلامـك في أحـد الأيـام

-أي كلام تقصد؟ تساءل الشاب مستغربا

قـال صديقـه : كلامـك المتواصـل في السـابق عـن الاعتـماد عـلى الموهبـة الشـخصية هـو مـا فتـح لي المجـال في هـذا الأمـر، حيـث أخـذت أختـبر نفـسي وأبحـث عـن أي موهبـة يمكـن أن أمتلكهـا لأسـتغلها وأغـيّر بهـا مـن وضعـي إلى أن اكتشـفت في نفـسي القـدرة عـلى الكتابـة والتأليـف فعملـت بجـد واجتهـدت كثـيرا حتـى أنجـح في ذلـك المجـال.

ثم تابع قائلا:

رغـم فشـلي المتواصـل في بدايـاتي إلا أني لم أستسـلم أبـدا وظللـت أعيـد المحاولة حتـى نجحت.

قـال الشـاب وعلامـات التأثـر باديـة عـلى وجهـه: الكتابـة والتأليـف إذن؟ ثـم صمـت وغـرق في تفكـير عميـق دون أن يضيـف كلمـة واحـدة.

قال صديقه: أعرف جيدا ما تفكر فيه يا صديقي فأنت أكثر موهبة مني بكثير في هذا المجال وكان بإمكانك أن تحقّق نجاحات أكثر بكثير من التي حققتها أنا، لكنك مع الأسف افتقدت أهم ميزات النجاح والتفوق وهي البصيرة والصبر والإصرار والنهوض بعد السقوط.

قال الشاب الذي حاول تغيير الموضوع بعد أن أحس بالألم والاحباط:
وكيف تطورت تجارتك البسيطة حتى أصبحت بهذا الشكل؟
رد صديقه:
كما أن الفراش يجذبه ضوء النار الباهر إذا رآها في الظلام فيندفع نحوها دون تردد فإن الناس في العادة تستقطبها المظاهر الباهرة وتنجذب لمن لديه مكانة مرموقة فيسعى الجميع للتعامل معه من دون أي تفكير.

لم يجب الشاب بشيء قط واستمر غارقا في تفكيره الذي ذهب به بعيدا -لقد كان الحل بين يدي دون أن أنتبه، يا لي من مغفّل. حدّث نفسه
قال صديقه:
لقد كان الحلّ بين يديك، بينما ذهبت تبحث عنه في أماكن أخرى متفرقة وطفت نصف قارات العالم دون أن تدرك أن التعامل مع المواقف بحكمة هو مفتاح الخروج من كل مأزق
ثم أردف قائلا:
على كل حال لم يفت الوقت بعد، تستطيع أن تفعلها الآن، المهم أنك

وجـدت الحـلّ أخـيرا فـأن يـأتي الـشيء متأخـرا أفضـل مـن أن لا يـأتي أبـدا. قـال الشـاب: معـك حـق يـا صديقـي، أن يـأتي الـشيء متأخـرا أفضـل مـن أن لا يـأتي أبـدا فـما هـذه الحيـاة إلا مدرسـة والتجـارب التـي نمـرّ بهـا إنمـا هـي بمثابـة دروس نتعلـم منهـا واللبيـب مـن يتعلّـم مـن أخطائـه.

ثم استقام واقفا وقال مبتسما:

-هيـا بنـا بسرعـة، أريـد أن أرى أمـي فقـد اشـتقت لهـا كثـيرا، لا بـد أنهـا أصبحـت عجـوزا مسـنة بعـد كل هـذه السـنوات.

لم ينهـض صديقـه مـن مكانـه ولم يجب بأي شيء قط شـيئا واكتفى بالاسـتواء في جلسـته، وهـو يمسـح عـلى لحيتـه الخفيفـة بيـده اليمنـى دون أن يرفـع عينيه.

لاحـظ الشـاب تلـك الملامـح التـي كانـت عـلى وجـه صديقـه مـما أثـار اسـتغرابه كثـيرا، لكـن ذلـك الاسـتغراب انتهـى عندمـا نهـض رفيقـه مـن مكانـه وقـال وهـو لا يـزال يخفـض عينيـه:

-بـكل أسـف ياصديقـي، لـن يكـون بإمكانـك رؤيـة والدتـك مجـددا، لقـد كانـت رؤيتهـا عندمـا ودعتهـا وهاجـرت قبـل سـنوات هـي المـرة الأخـيرة لـك في حياتـك. كل مـا تسـتطيع رؤيتـه الآن هـو قبرهـا.